جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

قراءة تحليلية
في كلام النبي ﷺ
عن نفسه من القرآن الكريم

الدكتور
الحسن عبد اللطيف محمد اللاوي
مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بجرجا

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الخامس
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين ولو كره الكافرون، وصلِّ اللهم وسلمْ وباركْ على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين، شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وارض اللهم عن آله الأطهار وأصحابه الأخيار، وعلى جميع الصالحين والأبرار.

وبعد

يُرجى لهذا البحث أن يقوم بقراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، متخذا من آيات القرآن الكريم التي اشتملت على ضمير المفرد المتكلم العائد إلى النبي ﷺ مجالا لتلك القراءة التحليلية.

تحاول تلك القراءة الكشف عن سمات الجمال وخصائص الحسن في تلك الآيات من خلال استعراض مفصل لأبرز الموضوعات التي اشتمل عليها هذا الكلام.

ويَبْرُزُ اهتمامُ هذه القراءة بالألفاظ والأساليب والتصوير بقدر ما تكشف لنا عن ملامح وسمات شخصية النبي ﷺ كما ترسمها الآيات.

وقد صاحبتُ في هذه الرحلة كتب التفسير وعلوم القرآن واللغة والأدب في القديم والحديث استرشادا بها لمعرفة معالم هذا الطريق الوعر، مقتبسا منها ما يصب في معين هذه القراءة ويحقق أهدافها، مناقشا ما يحتاج إلى مناقشة، ومعقبا على ما يحتاج إلى تعقيب، مستأنسا في كل ذلك بالحجة والدليل.

وقد تتعدد الموضوعات في الآية الواحد مما يستدعي إعادة ذكرها أو ذكر بعضها تلبية لحاجة الموضوع، وكنت في الأغلب الأعم أكتفي من الآية بموطن الشاهد فيها، حتى لا تتداخل الموضوعات، وعند تعلق موطن الشاهد في الآية بما

تقدم عنه أو تأخر عليه كنت أذكر الآية كاملة، ولكن كنت أكتفي في القراءة التحليلية بشاهد الموضوع فيها.

وقد راعيت في كل ذلك ضبط النصوص من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية الواردة في هذا البحث، مع ذكر رقم الآية والسورة التي وردت فيها، وعزو كل نص إلى مصدره.

وراعيت وضع كل النصوص المقتبسة بين علامتي تنصيص، وأشرت إلى جميع المصادر والمراجع التي اقتبست منها في الهامش، مكتفيا بذكر البيانات كاملة عند أول اقتباس.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن يشتمل على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

تتناول **المقدمة**: أسباب اختيار الموضوع، وأهم ملامح منهج دراسته، وخطة السير فيه.

ودار **التمهيد**: حول السمات العامة لكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم

واشتمل **الفصل الأول** على : قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالله.

وفيه ثمانية مباحث:

أولا: كلامه عن إقراره بتوحيد الله.

ثانيا: كلامه عن إقراره بأن وليه الله.

ثالثا: كلامه عن توكله على الله.

رابعا: كلامه عن عبادته لله.

خامسا: كلامه عن دعوته إلي الله.

سادسا: كلامه عن استشهاده بالله على صدقه.

سابعا: كلامه عن تحكيم الله في كل أموره.

ثامنا: كلامه عن خوفه من معصية الله وعذابه.

واشتمل **الفصل الثاني** على: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالقرآن الكريم وعلاقته بدينه.

وفيه مبحثان:

أولا: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالقرآن الكريم.

ثانيا: قراءة تحليلية في كلامه عن علاقته بدينه.

ويشتمل **الفصل الثالث** على: قراءة تحليلية في كلامه عن صفاته وسماته الشخصية.

وفيه خمسة مباحث:

أولا: كلامه عن كونه أول المسلمين وأول العابدين.

ثانيا: كلامه عن كونه رسولا.

ثالثا: كلامه عن كونه بشرا.

رابعا: كلامه عن كونه نذيرا وبشيرا.

خامسا: كلامه عن كونه عادلا.

ويشتمل **الفصل الرابع** على: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه.

وفيه سبعة مباحث:

أولا: نفي كون العلم ذاتيا فيه.

ثانيا: نفي معرفة الغيب المطلق.

ثالثا: نفي أن تكون عنده خزائن الله.

رابعا: نفي كونه ملكا من الملائكة.

خامسا: نفي ملكية النفع والضر لنفسه.

سادسا: نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي.

سابعا: نفي كونه وكيلا على قومه أو حفيظا عليهم.

واشتملت **الخاتمة** على: بيان أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث. مع فهرس لأبرز المصادر والمراجع التي أفاد منها هذا البحث، وفهرس للموضوعات.

والله – سبحانه وتعالى– أسأل، وبنبيِّه ﷺ أتوسَّل، أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجنِّبنا بفضله الزَّلَل، وأن يُحْسِن ختامَنا عند حضور الأجل.

تمهيد

حول السمات العامة لكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم

كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم هو ذلك الكلام الذي يحمل في طياته ضمير المفرد المتكلم العائد إلى النبي ﷺ سواء أكان متصلا أم منفصلا، ظاهرا أم مستترا.

وقد اتسم بعديد من السمات والملامح التي تشيع في كثير من الآيات التي ورد فيها هذا الكلام، بل إن من بين هذه السمات وتلك الملامح ما اختص به كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، فلا تكاد تجدها في غير ذلك من آياته. وفيما يلي رصد لأبرز تلك السمات، وبيان لأهم تلك الملامح.

كثير من كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم إنما جاء في إطار أمر الله له أن يقول هذا الكلام، فترى كثيرا من كلامه عن نفسه مسبوقا بالأمر الإلهي [قل]، خاصة ما جاء في الرد على المخالفين، والأمثلة على هذا كثيرة.

"وفى قوله تعالى: [قُلْ] تثبيت للنبي من ربّه، ووضع للكلمة التي ينبغي أن يقولها، على لسانه وفى قلبه، يتلقاها من الله، فتلتقي مع الكلمة التي يريد أن يقولها، فإذا هي نور في قلبه، وقوة في عزمه، وطمأنينة في صدره، ولطف عظيم من ألطاف ربه."(١)

"وتكرار الأمر بأن يقول لهم ما يقول، لفضل التنبيه، ولتقوية الإيمان بأنه يتكلم عن ربه، ولأنه الذي يتولى محاجاتهم."(٢)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٤٦) عبد الكريم يونس الخطيب (١٤٢٩هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) زهرة التفاسير (٥/ ٢٥٠٩) محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي. ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

"وفى تكرار [قل] مع كل قول من الله –تعالى– لهم كمال عناية، وتمام رعاية من الله – سبحانه– للنبي، حيث يجد مع كل نفس يتنفّسه، وحي السماء يقول له: قل.. قل.. قل.. وبهذا يشتدّ عزمه، وتثبت في لقاء الكافرين قدمه." (١)

وقد جاء بعض كلامه عن نفسه مباشرة مثل قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [الأنعام : ١١٤]

ورأى بعضهم تقدير الفعل [قل] في مطلع هذا الكلام فقال: " (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً) تِلْكَ الْجُمْلَةَ مَقُولُ قَوْلٍ مُقَدَّرٍ، إِذِ التَّقْدِيرُ: قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا."(٢)

وقال بعضهم: " (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً) كلام مستأنف على إرادة القول."(٣)

وقال بعضهم: "ويلاحظ هنا أن هذا القول الذي يقوله النبي في هذا المقام لم يصدّر بأمر الله [قل] الذي اعتاد النبي أن يؤمر به في كلّ قول يقوله من قبل الله – سبحانه وتعالى–، فما السرّ في أن جاء مقول القول هنا مجردا عن القول؟.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٤٦)

(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد = التحرير والتنوير (٨– أ/ ١٨) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤هـ.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني = تفسير الألوسي (٤/ ٢٥٣) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ

والجواب- والله أعلم- أن هذا القول وإن كان من عند الله -سبحانه وتعالى- هو جدير بكل إنسان عاقل أن يقوله، فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أمر سماوي به، يلفت إليه، وينبّه له."[١]

ومن كلامه الذي لم يسبق بفعل الأمر [قل] قوله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) [الشورى : ١٠]

فقوله: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) لم يسبق بفعل الأمر [قل]، ولأن كثيرا من كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم إنما جاء في إطار ألأمر [قل] لهذا قال الشيخ الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ): "يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ مَقُولَ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى) [الشورى: ٧]، فَتَكُونَ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا لِأَنَّ الْإِنْذَارَ يَقْتَضِي كَلَامًا مُنْذَرًا بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِجُمْلَةِ (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ) تَكْمِلَةٌ لِلْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ: (رَبِّي) التفاتا مِنَ الْخِطَابِ إِلَى التَّكَلُّمِ، وَالتَّقْدِيرُ: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، وَتَكُونُ جُمْلَتَا (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) مُعْتَرِضَتَيْنِ."[٢]

ومن الآيات التي جاء فيها كلامه عن نفسه غير مسبوق بفعل الأمر [قل] قوله تعالى: (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) [الأنعام : ١٠٤]

فقوله تعالى: (وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظ) لم يسبق بـ [قل]، ولأن كثيرا من كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم إنما جاء في إطار ألأمر [قل] لهذا جعل الشيخ محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ) القرينة بديلا عن فعل الأمر [قل] فقال: "ظاهر ذلك أنه من النبي ﷺ، ولم يكن ثمة حاجة إلى أن يقول الله -تعالى- لنبيه ﷺ : قل (وَمَا أَنَا عَلَيْكم بِحَفِيظ)؛ لأن الكلام منزل من عند الله -تعالى-، والنبي ﷺ يخاطب

(١) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٢٩٩)
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٤٢)

به العرب، والقرينة دالة على أن ذلك من النبي ﷺ لقومه الذي هو رءوف بهم، ولكنه ليس بحفيظ عليهم."[١]

ومثله قوله تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الذاريات : ٥٠-٥١]

أما ما حكاه القرآن عنه من كلامه عن نفسه فقليل جدا، مثل قوله تعالى: (وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) [التوبة : ٩٢]

وأما ما حكاه القرآن عنه في قوله تعالى:(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا) [التوبة : ٤٠] فالكلام فيه ليس عن نفسه خاصة، إذ معه صاحبه سيدنا أبو بكر – رضي الله عنه-.

وأما ما حكاه القرآن عنه في قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) [الأحزاب : ٣٧] فليس فيه كلام عن نفسه، وإنما هو خطاب لسيدنا زيد بن حارثة –رضي الله عنه-.

وذهب الماتريدي (٣٣٣هـ) إلى أن بعض الأوامر القولية التي تضمنت كلامه عن نفسه يراد بها الخلق كلهم، فقال:

"وقوله: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الأنعام:١٦١]

وقوله –عَزَّ وَجَلَّ-: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[الأنعام:١٦٢]

وقوله –عَزَّ وَجَلَّ-: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) [الأنعام : ١٦٤]

خاطب اللَّه بهذه الآيات رسوله ﷺ والمرادُ به: الخلقُ كله، فمن بلي بمثل ما كان بلي رسول اللَّه ﷺ من السؤال والدعاء، فله أن يقرأ أو يذكر ما في هذه الآيات.

---

(١) زهرة التفاسير (٥/ ٢٦١٩)

ولو كان المراد بالخطاب بهذا رسول اللَّه ﷺ خاصة، لكان لا يقول له: (قُلْ)، ولكن يقول له: افعل كذا، ولا تفعل كذا."[١]

الرسول ﷺ هو الأسوة والقدوة لجميع المسلمين، وكونه أسوة وقدوة لهم فإن ذلك لا يعني دخولهم معه في الخطاب الإلهي (قل) في تلك الآيات أو غيرها.

نعم هم مأمورن بالعمل بمقتضى ما فيها ، لا على أنهم مخاطبون بها – كما ذهب إلى هذا الماتريدي (رحمه الله)– ولكن على أنهم مأمورون باتباعه والاقتداء والتأسي به.

وأما قول الماتريدي: (ولو كان المراد بالخطاب بهذا رسول اللَّه ﷺ خاصة، لكان لا يقول له: (قُلْ)، ولكن يقول له: افعل كذا، ولا تفعل كذا) فهذا القول لا يصح لأن الأقوال شيء والأفعال شيء آخر، والله يريد منه في هذه الآيات أن يقول لا أن يفعل.

ولو كان يريد منه أو من غيره أن يفعل لجاء الأمر بأن يفعل لا أن يقول، كما في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) [هود : ١١٢] وغيرها الكثير.

كما ذهب الماتريدي (٣٣٣هـ) إلى أن بعض الأوامر القولية التي تضمنت كلامه عن نفسه يُحمل بعضها على الدعاء، فقال:

"وقوله: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام : ١٦٢] يخرج على وجهين:

أحدهما: يخرج على الأمر بالدعاء لنفسه؛ لأنه قال: قل: اجعل صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.

---

(١) تأويلات أهل السنة = تفسير الماتريدي (٤/ ٣٣٧-٣٣٨) أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (٣٣٣هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

والثاني: على المنابذة مع أُولَئِكَ الكفرة والفجرة، يقول: أنا أجعل صلاتي وعبادتي ومحياي ومماتي لله، لا أجعل لغيره شركاء، كما جعلتم أنتم لغيره شركاء في عبادته وصلاته ونسكه، واللَّه أعلم."[1]

ولا أرى حمل الأمر [قل] في الآية الكريمة على الدعاء مقبولا، لقوله تعالى في الآية التي بعدها: (لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام : ١٦٣]، فهو قد أمره بقول ذلك، ليعلم كل الناس عنه هذه الأحوال وتلك الصفات، بدليل [أمرت]، إذ أن الأمر يعني تحقق هذه الأحوال وتلك الصفات في ذاته الشريفة امتثالا للأمر الكريم، بينما حمل المعنى على أنه دعاء لا يفيد تحقق هذه الأحوال وتلك الصفات في ذاته الشريفة، بل يحتمل الأمرين التحقق وعدم التحقق.

يضاف إلى هذا أن الأمر [قل] جاء بعده الدعاء صريحا في بعض الآيات، مثل قوله تعالىَ: (قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً) [الإسراء : ٨٠] وقوله تعالى: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه : ١١٤]، وغيرها الكثير.

فلو كان المراد من الأمر في آية (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الدعاء لجاء صريحا كما في الآيات السابقة، لذا أرى أنه حمل الأمر (قل) على معنى الدعاء ليس مقبولا.

قد يأتي الأمر [قل] مرة واحدة في كثير من الآيات التي اشتملت على كلام النبي ﷺ عن نفسه، وقد يتكرر الأمر قل في بعضها مثل قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [الأنعام : ٥٦]

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/٣٣٨-٣٣٩)

"كَرر الأمرَ [قُلْ] مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور بهن، أو إيذانا باختلاف المَقولَيْن، من حيث إن الأولَ حكايةٌ لِما منْ جهتِه -تعالَى- منْ النهي، والثاني حكايةٌ لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذُكر من عبادة ما يعبدونه."(١)

"وتكرار الأمر [قل] هو- كما قلنا- مزيد من عناية الله- سبحانه- بالرسول الكريم، وإشعار له بأنه مأنوس برحمة الله، إذ يضع -سبحانه وتعالى- على فمه كلماته، وآياته، ليلقى بها المشركين، ويفضح باطلهم، ويكشف ضلالهم."(٢)

وجاء أمر النبي ﷺ بالكلام عن نفسه في إطار الرد على المخالفين.

واقترن كلامه عن نفسه بالكلام عن الآخرين.

وقد تتوالى الآيات التي ورد فيها كلام النبي ﷺ عن نفسه وقد تنفرد.

وشاع التأكيد في أساليب كلام النبي ﷺ عن نفسه.

وقد يرد الموضوع الواحد في آيات عديدة.

وقد تشتمل الآية الواحدة على عدة موضوعات.

وتنوع المخاطبون بكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، فتارة يكون الخطاب عاما للناس جميعا، وتارة يكون للكافرين، وتارة يكون لأهل الكتاب، وتارة يكون للمؤمنين. وقد يميل الخطاب إلى العقل تارة وإلى القلب تارة أخرى.

وحفِلَ كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم بسمات جمال متعددة الأنواع، فمنها سمات الجمال في الألفاظ، ومنها سمات الجمال في الأساليب، ومنها سمات الجمال في التصوير.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود (٣/ ١٤١) أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٩٨)

وحظيت أساليب كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم بسمات الجمال، فلا يخلو أسلوب من مظاهر الجمال، كالإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتأكيد، والتكرار.

وتنوعت طرائق التصوير في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، ما بين الحقيقة والمجاز بأنواعه المتعددة وألوانه المختلفة.

والأمثلة كثيرة على كل ما تقدم من سمات ، وفي القراءة التحليلية شواهد متعددة لكل سمة من هذه السمات.

وتمثل الناس ببعض ما جاء من كلامه عن نفسه، ومثال ذلك قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : ٦]

قال فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ): "جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِأَنْ يَتَمَثَّلُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ الْمُتَارَكَةِ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّهُ -تَعَالَى- مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُتَمَثَّلَ بِهِ بَلْ لِيُتَدَبَّرَ فِيهِ، ثُمَّ يُعْمَلَ بِمُوجَبِهِ."(١)

وتعقب الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ) هذا الكلام فقال: "وَهَذَا كَلَامٌ غَيْرُ مُحَرَّرٍ لِأَنَّ التَّمَثُّلَ بِهِ لَا يُنَافِي الْعَمَلَ بِمُوجَبِهِ وَمَا التَّمَثُّلُ بِهِ إِلَّا مِنْ تَمَامِ بَلَاغَتِهِ وَاسْتِعْدَاد لِلْعَمَلِ بِهِ."(٢)

بهذا نكون وقفنا مع بعض السمات العامة لكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، ونعيش في الفصول القادمة مع القراءة التحليلية لهذا الكلام لنكتشف المزيد من سماته وخصائصه من خلال عرض أبرز مجالاته وأظهر موضوعاته.

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير = تفسير الرازي (٣٢/ ٣٣٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٤)

الفصل الأول

قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته باللّه

اشتمل كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم على جانب كبير من كلامه عن علاقته بالله، وتشعبت مجالات الكلام عن تلك العلاقة، فمنها كلامه عن توحيده وعدم إشراكه بالله، وكلامه عن إقراره بأن وليه الله، وكلامه عن توكله على الله، وكلامه عن عبادته لله، وكلامه عن دعوته إلي الله، وكلامه عن استشهاده بالله على صدقه، وكلامه عن تحكيم الله في كل أموره، وكلامه عن خوفه من معصية الله وعذابه، وفيما يلي قراءة تحليلية لكلامه في كل مجال من تلك المجالات.

أولا: كلامه عن إقراره بتوحيد اللّه وعدم الإشراك به

جاءت الرسالات السماوية من أجل توحيد الله وعبادته، ونبذ كل ما ينافي التوحيد أو يشينه، والأنبياء والمرسلون هم أعظم الناس توحيدا لله، وأعظمهم توحيدا إمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وقد جاء في كلامه عن نفسه من القرآن الكريم إقراره بتوحيد الله وتعددت صور هذا الإقرار، ومن أبرزها:

١- تصريحه بكلمة التوحيد

جاء النبي ﷺ بالتوحيد ودعا الناس إليه، ولا بد لمن يدعو إلى شيء أن يكون أسوة للناس فيه، من ثم كان نُطْق النبي ﷺ بكلمة التوحيد أعظم دعوة و أبلغ بيان، قال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [التوبة : ١٢٩]

"(لاَ إله إلا هو) الذي لاَ عِدْلَ[١] له معادل، ولا مثلَ له مماثل، ولا شريكَ له مُظاهِر، ولا ولَدَ له ولا والد، ولم يكن له صاحبةٌ ولا كفوًا أحدٌ؛ وأنه الجبار الذي خضعت لجبروته الجبابرة، والعزيز الذي ذلت لعزّته الملوكُ الأعزّة، وخشعت لمهابة سطوته ذَوُو المهابة، وأذعنَ له جميعُ الخلق بالطاعة طوْعًا وكَرْهًا، كما قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) [سورة الرعد: ١٥] . فكل موجود إلى وَحدانيته داع، وكل محسوس إلى رُبوبيته هاد، بما وسَمهم به من آثار الصنعة، من نقص وزيادة، وعجز وحاجة، وتصرف في عاهات عارضة، ومقارنة أحداث لازمة، لتكونَ له الحجة البالغة."[٢]

"وَقَدْ أَفَادَتْ جُمْلَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) التَّوْحِيدَ، لِأَنَّهَا نَفَتْ حَقِيقَةَ الْأُلُوهِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ -تَعَالَى-. وَخَبَرُ [لَا] مَحْذُوفٌ، دَلَّ عَلَيْهِ مَا فِي [لَا] مِنْ مَعْنَى النَّفْيِ، لِأَنَّ كُلَّ سَامِعٍ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ نَفْيُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَالتَّقْدِيرُ: لَا إِلَه مَوْجُود إِلَّا هُوَ. وَقَدْ عَرَضَتْ حَيْرَةٌ لِلنُّحَاةِ فِي تَقْدِيرِ الْخَبَرِ فِي هَاتِهِ الْكَلِمَةِ، لِأَنَّ تَقْدِيرَ [مَوْجُود] يُوهِمُ أَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ إِلَهٌ لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا فِي وَقْتِ التَّكَلُّمِ بِهَاتِهِ الْجُمْلَةِ، وَأَنَا أُجِيبُ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِبْطَالُ وُجُودِ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ رَدًّا عَلَى الَّذِينَ ادَّعَوْا آلِهَةً مَوْجُودَةً الْآنَ، وَأَمَّا انْتِفَاءُ وُجُودِ إِلَهٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَمَعْلُومٌ، لِأَنَّ الْأَجْنَاسَ الَّتِي لَمْ تُوجَدْ لَا يُتَرَقَّبُ وَجُودُهَا مِنْ بَعْدُ، لِأَنَّ مُثْبِتِي الْآلِهَةَ يُثْبِتُونَ لَهَا الْقِدَمَ فَلَا يُتَوَهَّمُ تَزَايُدُهَا، وَنُسِبَ إِلَى الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّهُ لَا تَقْدِيرَ لِخَبَرٍ هُنَا، وَأَنَّ أَصْلَ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (هُوَ إِلَهٌ) فَقَدَّمَ (إِلَهٌ) وَأَخَّرَ (هُوَ) لِأَجْلِ الْحَصْرِ بِـ [إِلَّا]، وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَلَّفَ فِي ذَلِكَ «رِسَالَةً» ،

(١) العدل (بكسر العين وفتحها وسكون الدال) والعديل: النظير والمثيل. وعادله: ساواه وماثله.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري (١/ ٣) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

وَهَذَا تَكَلُّفٌ، وَالْحَقُّ عِنْدِي أَنَّ الْمُقَدَّرَاتِ لَا مَفَاهِيمَ لَهَا، فَلَيْسَ تَقْدِيرُ (لَا إِلَهَ مَوْجُودٌ) بِمَنْزِلَةِ النُّطْقِ بِقَوْلِكَ (لَا إِلَهَ مَوْجُودٌ) بَلْ إِنَّ التَّقْدِيرَ لِإِظْهَارِ مَعَانِي الْكَلَامِ وَتَقْرِيبِ الْفَهْمِ، وَإِلَّا فَإِنَّ [لَا] النَّافِيَةَ إِذَا نَفَتِ النَّكِرَةَ فَقَدْ دَلَّتْ عَلَى نَفْيِ الْجِنْسِ أَيْ نَفْيِ تَحَقُّقِ الْحَقِيقَةِ، فَمَعْنَى (لَا إِلَهَ) انْتِفَاءُ الْأُلُوهِيَّةِ (إِلَّا هُوَ) أَي إلّا الله."[١]

"وهنا نجد النفي ونجد الإثبات، النفي في (لاَ إله)، والإثبات في (إِلاَّ هُو) . والنفي تخلية والإثبات تحلية."[٢]

"الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ أَعْرَضُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا هَذِهِ التَّكَالِيفَ، لَمْ يَدْخُلْ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ حَزَنٌ وَلَا أَسَفٌ، لِأَنَّ اللَّهَ حَسْبُهُ وَكَافِيهِ فِي نَصْرِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَفِي إِيصَالِهِ إِلَى مَقَامَاتِ الْآلَاءِ وَالنَّعْمَاءِ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وَإِذَا كَانَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَا مُبْدِئَ لِشَيْءٍ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ وَلَا مُحْدِثَ لِشَيْءٍ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ إِلَّا هُوَ، وَإِذَا كَانَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَأَمَرَنِي بِهَذَا التَّبْلِيغِ كَانَتِ النُّصْرَةُ عَلَيْهِ وَالْمَعُونَةُ مُرْتَقَبَةً مِنْهُ."[٣]

ومن الآيات التي أعلن فيها كلمة التوحيد قوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) [الرعد : ٣٠]

"إن الرحمن الذين أنكرتم معرفته هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الواحد القهار المتعالي عن الشركاء. (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) في نصرتي عليكم، (وَإِلَيْهِ مَتَابِ) رجوعي فيثيبني على مصابرتكم."[٤]

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٧٥)

(٢) خواطري حول القرآن الكريم = تفسير الشعراوي (٢/ ١٠٨٧) محمد متولي الشعراوي (١٤١٨هـ) مطابع أخبار اليوم، ١٩٩١ م.

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٦/ ١٧٩)

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان = تفسير النيسابوري (٤/ ١٦٠) نظام الدين الحسن بن بن حسين القمي النيسابوري (٨٥٠هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.

"وَالتَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ فِي [يَكْفُرُونَ] لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ ذَلِكَ وَاسْتِمْرَارِهِ. وَمَعْنَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ إِشْرَاكُهُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَقَدْ أَبْطَلُوا حَقِيقَةَ الْإِلَهِيَّةِ فَكَفَرُوا بِهِ.

وَاخْتِيَارُ اسْمِ (الرَّحْمَنِ) مِنْ بَيْنِ أَسْمَائِهِ -تَعَالَى- لِأَنَّ كُفْرَهُمْ بِهَذَا الِاسْمِ أَشَدُّ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَنْ يكون الله رحمن. قَالَ تَعَالَى: (وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ فِي سُورَةِ [الْفُرْقَانِ :٦٠]، فَأَشَارَتِ الْآيَةُ إِلَى كُفْرَيْنِ مِنْ كُفْرِهِمْ: جَحْدِ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَجحد اسْم الرحمان وَلِأَنَّ لِهَذِهِ الصِّفَةِ مَزِيدَ اخْتِصَاصٍ بِتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَتَأْيِيدِهِ بِالْقُرْآنِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلنَّاسِ. وَقَدْ أَرَادُوا تَعْوِيضَهُ بِالْخَوَارِقِ الَّتِي لَا تُكْسِبُ هَدْيًا بِذَاتِهَا وَلَكِنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ مَنْ جَاءَ بِهَا .

وَقَوْلُهُ: (لَا إِلهَ إِلَّا هُو) إِبْطَالٌ لِإِشْرَاكِهِمْ مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ غَيْرَهُ. وَهَذَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَهُ، فَهُوَ احْتِرَاسٌ لِرَدِّ قَوْلِهِمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَدْعُو إِلَى رَبٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ رَبَّهُ اللَّهُ وَإِن ربه الرحمن، فَكَانَ قَوْلُهُ: (لَا إِلهَ إِلَّا هُو) دَالا على أَن الْمَدْعُو بالرحمن هُوَ الْمَدْعُو بالله، إِذْ لَا إِلَه إِلَّا إِلَه وَاحِد، فَلَيْسَ قَوْله: (لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ) إِخْبَارا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاعْتِرَاضِ.

وَجُمْلَةُ (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وَإِلَيْهِ مَتَاب هِيَ نَتِيجَةٌ لِكَوْنِهِ رَبًّا وَاحِدًا. وَلَكِنَّهَا كَالنَّتِيجَةِ لِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الِاتِّصَالِ.

وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورَيْنِ وَهُمَا [عَلَيْهِ] و[إِلَيْه] لِإِفَادَةِ اخْتِصَاصِ التَّوَكُّلِ وَالْمَتَابِ بِالْكَوْنِ عَلَيْهِ، أَيْ: لَا عَلَى غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا تَوَحَّدَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كَانَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَلَمَّا اتَّصَفَ بِالرَّحْمَانِيَّةِ كَانَ الْمَتَابُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ رَحْمَانِيَّتَهُ مَظِنَّةٌ لِقَبُولِهِ تَوْبَةَ عَبْدِهِ."[(١)]

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٠-١٤٢)

٢- بيان عدم إشراكه باللّه

بجانب تصريحه ﷺ بكلمة التوحيد أبان كذلك عدم إشراكه بالله، وقد تعددت وتنوعت طرق بيان عدم إشراك النبي بالله في كلامه عن نفسه، فمن ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) [الرعد : ٣٦]

"إنما أمرت فيما أنزل إليَّ أن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة في الأديان كلها، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام لأنها تابعة للمصالح والعوائد، وتتجدد بتجددها."(١)

"إنه يعبد الله إلها واحدا لا شريك له، وهو-صلوات الله وسلامه عليه- بهذه الدعوة يدعو عباد الله إلى الإيمان بالله إلها واحدا لا شريك له."(٢)

"كأن هذا قاله على إثر قول كان منهم؛ كأنهم دعوه إلى أن يشاركهم في عبادة الأصنام، أو دعوه أن يكون على ما كان آباؤهم؛ فقال: قل إنما أمرت أن أعبد اللَّه وأمرت ألا أشرك به."(٣)

"وَلَمَّا كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ مَجْمُوعَ شَيْئَيْنِ: عِبَادَةَ اللَّهِ، وَعَدَمَ الْإِشْرَاكِ بِهِ فِي ذَلِكَ آلَ الْمَعْنَى: أَنِّي مَا أُمِرْتُ إلَّا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ.

وَمِنْ بَلَاغَةِ الْجَدَلِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ بَلْ أَتَى بِهِ مُتَدَرِّجًا فِيهِ فَقَالَ: أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ لِأَنَّهُ لَا يُنَازِعُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٣٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ.

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٣٨)

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٥٠)

الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ وَلا أُشْرِكَ بِهِ لِإِبْطَالِ إِشْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ وَلِلتَّعْرِيضِ بِإِبْطَالِ إِلَهِيَّةِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِأَنَّ ادِّعَاءَ بُنُوَّتِهِ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- يَؤُولُ إِلَى الْإِشْرَاكِ.

وَجُمْلَة (إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ) بَيَانٌ لِجُمْلَةِ (إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّـهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ) أَيْ أَنْ أَعْبُدَهُ وَأَنْ أَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِذَلِكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ اسْتُفِيدَ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِاخْتِصَاصِ، أَيْ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ أَدْعُو، أَيْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَإِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ مَنَابِي، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ يُرْجِعُونَ فِي مُهِمَّهُمْ إِلَى الْأَصْنَامِ يَسْتَنْصِرُونَهَا وَيَسْتَغِيثُونَهَا، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ هَذَا مَا يُنْكِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِذْ هُوَ مِمَّا كَانُوا فِيهِ سَوَاءً مَعَ الْإِسْلَامِ. عَلَى أَنَّ قَوْله: (وَإِلَيْهِ مَآبِ) يَعُمُّ الرُّجُوعَ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْبَعْثُ.

وَهَذَا مِنْ وُجُوهِ الْوِفَاقِ فِي أَصْلِ الدِّينِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ."[1]

"وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَضْدَادِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ إِبْطَالُ قَوْلِ كُلِّ مَنْ أَثْبَتَ مَعْبُودًا سِوَى اللَّهِ -تَعَالَى-.

فَإِذَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ وَوَقَفَ عَلَيْهَا عَرَفَ أَنَّهَا مُحْتَوِيَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي الدين."[2]

ومنها قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً) [الجن : ٢٠]

"أمر الله-تعالى- نبيه ﷺ أن يعلن لجميع من أرسل إليهم، أنه لا يعبد أحدا سواه -عز وجل- فقال: (قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨-١٥٩)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٩/ ٤٨)

أي: قل-أيها الرسول الكريم- لجميع من أرسلناك إليهم من الجن والإنس: إني أعبد ربي وحده، وأتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب، ولا أشرك معه أحدا."[١]

"إخبار عن دينه: أن دينه التوحيد، لا الإشراك باللَّه -تعالى- وإخبار عما يدعو الخلق إليه، وذلك توحيد اللَّه -تعالى- والقيام بطاعته.

وجائز أن يكون هذا على أثر سؤال منهم، ودعوتهم إلى عبادة الأصنام؛ على ما ذكر في الأخبار أنهم قالوا: إنا نعبد إلهك يوما، وتعبد آلهتنا يوما."[٢]

"و (إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي) يُفِيدُ قَصْرًا، أَيْ لَا أَدْعُو غَيْرَهُ، أَيْ لَا أَعْبُدُ غَيْرَهُ دُونَهُ. وَعُطِفَ عَلَيْهِ (وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً) تَأْكِيدًا لِمَفْهُومِ الْقَصْرِ."[٣]

"فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم أو إطباقكم على مقتي."[٤]

ومنها قوله تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) [الأنعام : ١٩]

"فهذا في الظاهر استفهام، ولكنه في الحقيقة إيجاب أنكم لتشهدون أن مع اللَّه آلهة أخرى، بعد ما ظهر عندكم آيات وحدانيته، وحجج ربوبيته لما عرفتم

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/ ١٤٣) محمد سيد طنطاوي (١٤٣١هـ) دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧/١٩٩٨م.

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (١٠/ ٢٦٠)

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤٣)

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي (٥/ ٢٥٣) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

أنه خالقكم وخالق السماوات والأرض، به تعيشون وبه تحيون، وبه تموتون، مع ما ظهر لكم هذا أشركتم مع اللَّه آلهة أخرى، وليس ذلك مما تشركون في عبادته وألوهيته، وأنا لا أشهد، وإنما أشهد أنه إله واحد وإنني بريء مما تشركون في ألوهيته وربوبيته."[١]

"وأمره صلى الله عليه وسلم بأن يتولى الجواب بنفسه، إما للإيذان بتعينه، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه، لا لترددهم في أنه -تعالى- أكبر من كل شيء، بل في كونه شهيدا في هذا الشأن."[٢]

"وَجُمْلَةُ (قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ) بَيَانٌ لِجُمْلَةِ (لَا أَشْهَدُ) فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ، لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ عَطْفِ الْبَيَانِ، لِأَنَّ مَعْنَى لَا أَشْهَدُ بِأَنَّ مَعَهُ آلِهَةً هُوَ مَعْنَى أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَأُعِيدَ فِعْلُ الْقَوْلِ لِتَأْكِيدِ التَّبْلِيغِ.

وَكَلِمَةُ [إِنَّما] أَفَادَتِ الْحَصْرَ، أَيْ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ: ثُمَّ بَالَغَ فِي إِثْبَات ذَلِك بالتبري مِنْ ضِدِّهِ بِقَوْلِهِ: [وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ]. وَفِيهِ قَطْعٌ لِلْمُجَادَلَةِ مَعَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَارَكَةِ.

وَ[مَا] فِي قَوْلِهِ: (مِمَّا تُشْرِكُونَ) يَجُوزُ كَوْنُهَا مَصْدَرِيَّةً، أَيْ مِنْ إِشْرَاكِكُمْ. وَيَجُوزُ كَوْنُهَا مَوْصُولَةً، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، أَيْ مِنْ أَصْنَامِكُمُ الَّتِي تُشْرِكُونَ بِهَا."[٣]

"وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ دَالٌّ عَلَى إِيجَابِ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ عَنِ الشِّرْكِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ (قُلْ لَا أَشْهَدُ) أَيْ: لَا أَشْهَدُ بِمَا تَذْكُرُونَهُ مِنْ إِثْبَاتِ الشُّرَكَاءِ.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٤١-٤٢)

(٢) محاسن التأويل = تفسير القاسمي (٤/ ٣٢٨) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (١٣٣٢هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٠)

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ (قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ) وكَلِمَةُ [إِنَّما] تُفِيدُ الْحَصْرَ، وَلَفْظُ [الْوَاحِدِ] صَرِيحٌ فِي التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشركاء.

وثالثها: قوله (إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) وَفِيهِ تَصْرِيحٌ بِالْبَرَاءَةِ عَنْ إِثْبَاتِ الشُّرَكَاءِ فَثَبَتَ دَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِيجَابِ التَّوْحِيدِ بِأَعْظَمِ طُرُقِ الْبَيَانِ وَأَبْلَغِ وُجُوهِ التَّأْكِيدِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمُسْتَحَبُّ لِمَنْ أَسْلَمَ ابْتِدَاءً أَنْ يَأْتِيَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَيَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ دِينٍ سِوَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَنَصَّ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّه- عَلَى اسْتِحْبَابِ ضَمِّ التَّبَرِّي إِلَى الشَّهَادَةِ لِقَوْلِهِ: (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) عقيب التصريح بالتوحيد."[١]

٣- إنكاره أن يبغي غير الله ربا

من صور إقراره بتوحيد الله إنكاره أن يبغي غير الله ربا، جاء ذلك في قوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) [الأنعام : ١٦٤]

"الهمزة للإنكار، أي: منكر أن أبغى ربا غيره (وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) فكل من دونه مربوب، ليس في الوجود من له الربوبية غيره."[٢]

"وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ، و[أَبْغِي] معناه أطلب، فكأنه قال: أفيحسن عندكم أن أطلب إلها غير الله الذي هو رب كل شيء؟."[٣]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٩-٥٠٠)

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل = تفسير الزمخشري (٢/ ٨٤) جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز = تفسير ابن عطية (٢/ ٣٧٠) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت.

"وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنَ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ لَهُمْ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَغَيْرَ: مَنْصُوبٍ بِالْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَرَبًّا: تَمْيِيزٌ أَوْ مَفْعُولٌ ثَانٍ عَلَى جَعْلِ الْفِعْلِ نَاصِبًا لِمَفْعُولَيْنِ."(١)

"وعبر هنا بقوله (رَبًّا) ولم يعبر بكلمة (إلها) للإشارة إلى التلازم بين الربوبية والألوهية."(٢)

"(وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) جملةٌ حالية مؤكدةٌ للإنكار، أي: والحالُ أنَّ كلَّ ما سواهُ مربوبٌ له مثلي فكيفَ يُتصوّر أن يكونَ شريكاً له في المعبودية."(٣)

"وَالْمَعْنَى أَنَّهُ كَيْفَ يَجْتَمِعُ لِي دَعْوَةُ غَيْرِ اللَّهِ رَبًّا وَغَيْرُهُ مَرْبُوبٌ لَهُ."(٤)

"وَإِنَّمَا قِيلَ: وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَقُلْ: وَهُوَ رَبِّي، لِإِثْبَاتِ أَنَّهُ رَبُّهُ بِطَرِيقِ الِاسْتِدْلَالِ لِكَوْنِهِ إِثْبَاتَ حُكْمٍ عَامٍّ يَشْمَلُ الْمَقْصُودِ الْخَاصِّ، وَلِإِفَادَةِ أَنَّ أَرْبَابَهُمْ غَيْرُ حَقِيقَةٍ بِالربوبيّة لأنّها مربوبة أَيْضًا لِلَّهِ -تَعَالَى-."(٥)

---

(١) فتح القدير (٢/ ٢١١) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

(٢) زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٦٤)

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٠٧)

(٤) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٧٠٤) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ.

(٥) التحرير والتنوير (٨-أ/ ٢٠٦)

ثانيا: كلامه عن إقراره بأن وليه الله

تعددت صور هذا الإقرار وتنوعت، فجاءت تارة من طريق التأكيد على هذا كما في قوله تعالى: (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) [الأعراف : ١٩٦]

"(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ) الولي هو الحبيب الموالي، والنصير، والمظل بالرعاية، وكل هذا يتضمنه ولاية الله لنبيه فهو حبيبه وناصره، ومن يعيش في ظله، ومن يفيض عليه برحمته وهدايته، ومن يكون الله –تعالى– وليه لَا يضار، ومن يرومه رد عليه. وقد أكد النبي ﷺ ولايته لله بالجملة الاسمية، و[إنَّ] المؤكدة. والكلام يفيد القصر، أي إن ولايتي لله –تعالى– وحده، لَا ولاية لأحد سواه، هنالك الولاية لله الحق، وإنه نعم المولى ونعم النصير.

وقد ذكر بعد ذلك أن الله –تعالى– هو منزل القرآن، وهو جدير بأن يحفظه كما وعد، وكما ذكر، وأن يؤيد من بلَّغه رحمة للعالمين، فقال تعالى: (الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ) وصلة الموصول علة في الحكم أو مؤكد لمعنى القول، أي أن الله –تعالى– ناصر محمدا ﷺ؛ لأنه صاحب الولاية المطلقة؛ ولأنه رسوله، وصاحب الكتاب المبين الذي يماري فيه الضالون، فالله ناصره.

وأمر ثالث يوجب عون الله –تعالى– ونصرته، وهو أن الله –تعالى– من شأنه أن يتولى الصالحين، أي يتعهدهم برعايته وتأييده وتوفيقه، ولا يتولى المفسدين.

وفي هذا الكلام إشارتان بيانيتان:

إحداهما: الحكم على النبي ﷺ بأنه من الصالحين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، وأن عبدة الأوثان مفسدون، قد أفسدوا في تفكيرهم وفي اعتقادهم، وأفسدوا وأضلوا باتباعهم الأوهام، وبعبادتهم من لَا ينفع ولا يضر.

والثانية: أن الله – تعالى– ناصر الصالحَ على الفاسد، ويتولى الصالحين برعايته ، وأنه – سبحانه وتعالى– لن يضيعهم أبدا، وأن النصر في النهاية للفضيلة لا للرذيلة، وللحق لَا للباطل، وهو يتولى عبادة المخلصين دائما."[١]

"وصف الله بأنه الذي نزّل الكتاب، وبأنه يتولى الصالحين، وفي هذين الوصفين استدلال على صدق النبي ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وبأن الله تولى حفظه، ومن تولى حفظه فهو من الصالحين، والصالح لا بد أن يكون صادقا في قوله، ولا سيما فيما يقوله عن الله."[٢]

"ووصفُه –تعالى– بتنزيل الكتابِ للإشعار بدليل الولايةِ، والإشارةِ إلى علة أخرى، لعدم المبالاةِ، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليّيَ هو الله الذى أَنزَلَ الكتابَ الناطقَ بأنه وليِّي وناصري، وبأن شركاءَكم لاَ يَسْتَطِيعُونَ نصرَ أنفسِهم فضلاً عن نصركم، وقوله تعالى: (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين) تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله أي ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصُرَهم ولا يخذُلَهم."[٣]

"وَالتَّعْرِيفُ فِي [الْكِتَاب] لِلْعَهْدِ، أَيِ الْكِتَابُ الَّذِي عَهِدْتُمُوهُ وَسَمِعْتُمُوهُ وَعَجَزْتُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، أَيِ الْمِقْدَارُ الَّذِي نَزَلَ مِنْهُ إِلَى حَدِّ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَجُمْلَةُ: (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) مُعْتَرِضَةٌ وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ.

---

(١) زهرة التفاسير (٦/ ٣٠٣٨-٣٠٣٩)

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل = تفسير ابن جزي (١/ ٣١٧) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٦ هـ.

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٣٠٧)

وَمَجِيءُ الْمُسْنَدِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِقَصْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ هَذَا التَّوَلِّي وَتَجَدُّدِهِ وَأَنَّهُ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ، فَكَمَا تَوَلَّى النبي يَتَوَلَّى الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ عَلَى صِرَاطِ نَبِيِّهِم ﷺ بِأَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ كَمَا نَصَرَ نَبِيَّهُ وَأَوْلِيَاءَهُ."(١)

وجاء إقراره بأن وليه الله من طريق الاستفهام المجازي كما في قوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ) [الأنعام : ١٤]

"أمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف أَغَيْرَ هذا الذي هذه صفاته أَتَّخِذُ وَلِيًّا بمعنى أن هذا خطأ لو فعلته بين. وتعطي قوة الكلام أن من فعله من سائر الناس بين الخطأ، وأَتَّخِذُ عامل في قوله أَغَيْرَ وفي قوله: وَلِيًّا تقدم أحد المفعولين، والولي لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأسباب الواصلة بين العبد وربه."(٢)

"الْوَلِيَّ مَعْنَاهُ الْأَصْلِيُّ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْقَرِيبُ. فَقَوْلُهُ: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) يَمْنَعُ مِنَ الْقُرْبِ مِنْ غَيْرِ اللَّه -تَعَالَى-. فَهَذَا يَقْتَضِي تَنْزِيهَ الْقَلْبِ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِ اللَّه -تَعَالَى-، وَقَطْعَ الْعَلَائِقِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّه -تَعَالَى-."(٣)

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٤)

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٧٣)

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٢)

ثالثا : كلامه عن توكله على اللّه

جاء إعلان النبي ﷺ عن توكله على الله خلال كلامه عن نفسه من القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) [التوبة : ١٢٩]، وفي قوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِـي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ [الرعد : ٣٠]، وقوله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) [الشورى : ١٠]

من الواضح أن قوله: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) قد اتفقت في بيانه على هذا النحـو جميع الآيات التي ورد فيها، وإن اختلفت سياقاته وتذييلاته، وهـذا يبـين مـدى حرصه على تأكيد هذا المعنى، بيانا لتلك الحقيقة ودعوة للعمل بها.

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) "في جميع أموري لا على غيره فإنه – سـبحانه– القـادر المتمكن من كل شيء، وغيره – سبحانه– عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، كما أشار إليه الكتاب، وعاينه أولو البصائر والألباب"(١)

وَهَذِهِ الآيات "تُفِيدُ التَّنْوِيهَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمُبَارَكَةِ لِأَنَّهُ أُمِرَ بِأَنْ يَقُـولَ هَـذِهِ الْكَلِمَةَ بِعَيْنِهَا وَلَمْ يُؤْمَرْ بِمُجَرَّدِ التَّوَكُّلِ كَمَا أُمِرَ فِي قَوْلِهِ: (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ إِنَّـكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) [النَّمْل:٧٩] ."(٢)

"وتقديم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على القصر، أي لا أتوكل على غيره، والتوكل لَا ينافي العمل، بل إن التوكل بين أمرين كلاهما باطل، الأمر الأول أن يعتقد أن الأسباب وحدها هي التي تؤثر في النجاح، وينسى قدرتـه المحيطـة

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٦/ ٣١٦)
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٧٤)

بكل شيء، والثاني من الباطل التواكل، وهو أن يهمل الأخذ بالأسباب، بل يأخذ بالأسباب، ويترك الوصول إلى النتائج لله -سبحانه وتعالى- فهو تعالت قدرته لَا يغفل عن شيء، والقادر على كل شيء."[١]

"والرسول ﷺ في المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال: (إنِّي متوكل على الله)، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوي الأمين الحكيم؛ والرسول لم يَقُلْ: توكلت عليه؛ ولكنه قال: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ).

والفارق بين القَوْلَيْنِ كبير، فحين تقول: (عليه توكلت) فأنت تَقْصر التوكُّل عليه وحده؛ ولكن إنْ قُلت: (توكلت عليه) فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر مِمَّنْ يمكنك التوكل عليهم، ولذلك نقول: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة: ٥] ونحصر العبادة فيه وله وحده -سبحانه-؛ فلا تتعداه إلى غيره؛ ولو أنها أُخِرَّتْ لَجازَ أن يعطف عليه. ويُقَال في ذلك (قصر) أي: أن العبادة مَقْصورة عليه؛ وكذلك التوكُّل، أي: أنني لا آخذ أوامري من أحد غيره."[٢]

"ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت (على الله توكلت وعليك)؛ فتوقع ألا يوفقك الله، لأنك أشركت أحداً غير الله."[٣]

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٣٩٥٠)
(٢) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٣٣٦)
(٣) تفسير الشعراوي (١١/ ٦٦٢٣)

رابعا: كلامه عن عبادته للّه

اقترن بعض كلام النبي ﷺ عن عبادته بكلامه عن الدين في بعض الآيات، ولا غرو فالعبادة هي روح هذا الدين، وهيكل ظهوره، وسيأتي الحديث عن هذه الآيات عند القراءة التحليلية في كلامه عن علاقته بدينه.

وأما الآيات التي تكلم فيها عن عبادته منفردة فقد دار الكلام فيها حول عدة محاور من أبرزها ما يلي.

١- أمر اللّه له بعبادته

جاء كلامه عن عبادة الله من خلال إظهار الأمر الإلهي له بذلك، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) [الرعد : ٣٦]

"كأن هذا قاله على إثر قول كان منهم؛ كأنهم دعوه إلى أن يشاركهم في عبادة الأصنام، أو دعوه أن يكون على ما كان آباؤهم؛ فقال: قل إنما أمرت أن أعبد اللَّه، وأمرت ألا أشرك به."(١)

"وَلَمَّا كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ مَجْمُوعَ شَيْئَيْنِ: عِبَادَةَ اللَّهِ، وَعَدَمَ الْإِشْرَاكِ بِهِ فِي ذَلِكَ آلَ الْمَعْنَى: أَنِّي مَا أُمِرْتُ إلَّا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ.

وَمِنْ بَلَاغَةِ الْجَدَلِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ بَلْ أَتَى بِهِ مُتَدَرِّجًا فِيهِ فَقَالَ: أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ لِأَنَّهُ لَا يُنَازِعُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ لِإِبْطَالِ إشْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ وَلِلتَّعْرِيضِ بِإِبْطَالِ إلَهِيَّةِ عِيسَى- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِأَنَّ ادِّعَاءَ بُنُوَّتِهِ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- يَؤُولُ إلَى الْإِشْرَاكِ."(٢)

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٥٠)

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨)

ومن ذلك قوله تعالى:(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [النمل : ٩١]

"افْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِأَدَاةِ الْحَصْرِ لِإِفَادَةِ حَصْرٍ إِضَافِيٍّ بِاعْتِبَارِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مُحَاوَرَاتُهُمُ السَّابِقَةُ مِنْ طَلَبِ تَعْجِيلِ الْوَعِيدِ، وَمَا تَطَاوَلُوا بِهِ مِنْ إِنْكَارِ الْحَشْرِ.

وَالْمَعْنَى: مَا أُمِرْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا تَبْتَغُونَ مِنْ تَعْيِينِ أَجَلِ الْوَعِيدِ وَلَا مِنِ اقْتِلَاعِ اسْتِحَالَةِ الْبَعْثِ مِنْ نُفُوسِكُمْ وَلَا بِمَا سِوَى ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ أَثْبُتَ عَلَى عِبَادَةِ رَبٍّ وَاحِدٍ وَأَنْ أَكُونَ مُسْلِمًا."[١]

"نلحظ في هذه الآية (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة) لم يقُلْ: أُمِرت أن أطيع الله؛ لأن الألوهية تكليف، أمّا الربوبية فعطاء وتربية، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله، وهي أنه -تعالى- يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهي، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية."[٢]

"وقوله تعالى: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) إشارة إلى أن الدين الذي بدين به النبي ليس دينا خاصا به وحده، ولا مقصورا عليه وحده، وإنما هو دين كل من يؤمن بالله، فهو واحد من المسلمين، وإن كان سيد المسلمين وإمامهم."[٣]

٢- إخلاص عبادته لله

يتضح كلامه عن إخلاص عبادته لله في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام : ١٦٢-١٦٣]

"يعني: أن ذلك كله له خالصًا دون ما أشركتم به، أيها المشركون."[٤]

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٥٥)

(٢) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٨٦٣)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١٠/ ٣٠٣)

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (١٢/ ٢٨٣)

"وَبِذلِكَ من الإخلاص أُمِرْتُ."(١)

"وَحَاصِلُ مَا تَضَمَّنَهُ هُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَهُوَ مُتَفَرِّعٌ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ."(٢)

"وَافْتُتِحَتْ جُمْلَةُ الْمَقُولِ بِحَرْفِ التَّوْكِيدِ لِلِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وَلِتَحْقِيقِهِ ... وَاللَّامُ فِي لِلَّهِ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْمِلْكِ، أَيْ هِيَ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ ... وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ أَيْ لِأَجْلِ اللَّهِ.

وَجعل صَلَاتَهُ لِلَّهِ دُونَ غَيْرِهِ تَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ إِذْ كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلْأَصْنَامِ. وَلِذَلِكَ أَرْدَفَ بِجُمْلَةِ: (لَا شَرِيكَ لَهُ) وَالنُّسُكُ حَقِيقَتُهُ الْعِبَادَةُ وَمِنْهُ يُسَمَّى الْعَابِدُ النَّاسِكُ. وَالْمَحْيَا وَالْمَمَاتُ يُسْتَعْمَلَانِ مَصْدَرَيْنِ مِيمِيَّيْنِ، وَيُسْتَعْمَلَانِ اسْمَيْ زَمَانٍ، مِنْ حَيِيَ وَمَاتَ، وَالْمَعْنَيَانِ مُحْتَمَلَانِ فَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِيَّ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ: أَعْمَالُ الْمَحْيَا وَأَعْمَالُ الْمَمَاتِ، أَيِ الْأَعْمَالُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهَا الْمَرْءُ مَعَ حَيَاتِهِ، وَمَعَ وَقت مماته. وَإِذا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُمَا الْمَعْنَى الزَّمَنِيَّ كَانَ الْمَعْنَى مَا يَعْتَرِيهِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ."(٣)

٣- نهي الله له عن عبادة غيره

كما اشتمل كلام النبي ﷺ عن نفسه على إظهار أمر الله له بعبادته، اشتمل كذلك على بيان نهي الله له عن عبادة ما سواه، قال تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [الأنعام : ٥٦]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٨٤)

(٢) التحرير والتنوير (٨-أ/ ٢٠٠-٢٠١)

(٣) التحرير والتنوير (٨-أ/ ٢٠١)

"أمر الله تعالى نبيه -عليه السلام- أن يجاهرهم بالتبري مما هم فيه، و[أَنْ أَعْبُدَ] هو بتأويل المصدر، التقدير: [عن عبادة]، ثم حذف الجار، فتسلط الفعل، ثم وضع [أَنْ أَعْبُدَ] موضع المصدر، وعبر عن الأصنام بـ [الَّذِينَ] على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل."(١)

"أَوْ لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا الْجِنَّ وَبَعْضَ الْبَشَرِ فَغُلِّبَ الْعُقَلَاءُ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ."(٢)

"وَبُنِيَ [نُهيتُ] عَلَى صِيغَةِ الْمَجْهُولِ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ لِظُهُورِ الْمُرَادِ، أَيْ نَهَانِي اللَّهُ. وَهُوَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ [عَنْ] فَحذف الْحَرْف حَذْفًا مُطَّردًا مَعَ [أَنْ] ."(٣)

"ثُمَّ أَمَرَهُ - سُبْحَانَهُ- بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: (لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ) أَيْ: لَا أَسْلُكُ الْمَسْلَكَ الَّذِي سَلَكْتُمُوهُ فِي دِينِكُمْ مِنَ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَالْمَشْيِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الْمَقَاصِدُ الْفَاسِدَةُ الَّتِي يَتَسَبَّبُ عَنْهَا الْوُقُوعُ فِي الضَّلَالِ.

قَوْلُهُ: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً) أَيِ: اتَّبَعْتُ أَهْوَاءَكُمْ فِيمَا طَلَبْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَةِ مَعْبُودَاتِكُمْ، وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَالْمَجِيءُ بِهَا اسْمِيَّةً عَقِبَ تِلْكَ الْفِعْلِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ"(٤)

ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [غافر : ٦٦].

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٩٨)

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٢)

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٢)

(٤) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٣٩)

"أمر الله – تعالى– نبيه –عليه السلام– أن يصدع بأنه نهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله، ووقع النهي لما جاءه الوحي والهدي من ربه – تعالى– وأمر بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال."(١)

"أَوْرَدَ ذَلِكَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَلْيَنِ قَوْلٍ لِيَصْرِفَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَبَيَّنَ أَنَّ وَجْهَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ مَا جَاءَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَتِلْكَ الْبَيِّنَاتُ أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ قَدْ ثَبَتَ كَوْنُهُ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ، وَصَرِيحُ الْعَقْلِ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِهِ، وَأَنَّ جَعْلَ الْأَحْجَارِ الْمَنْحُوتَةِ وَالْخُشُبِ الْمُصَوَّرَةِ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْمَعْبُودِيَّةِ مُسْتَنْكَرٌ فِي بَدِيهَةِ الْعَقْلِ."(٢)

"ثُمَّ بَيَّنَ وَجْهَ النَّهْيِ فَقَالَ: لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وهي للأدلة العقيلة وَالنَّقْلِيَّةُ، فَإِنَّهَا تُوجِبُ التَّوْحِيدَ."(٣)

"فهو – صلوات الله وسلامه عليه– قد نهى من ربه أن يعبد ما يعبد المشركون من دون الله، وقد اجتنب ما نهى عنه.

وهو– صلوات الله وسلامه عليه– قد أمر أن يعبد الله وحده، ويسلم وجوده لله رب العالمين، فامتثل ما أمر به."(٤)

"وَكَانَ تَخْصِيصُ ذَاتِهِ بِهَذَا النَّهْيِ دُونَ تَشْرِيكِهِمْ فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ الَّذِي تَقَدَّمَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ مَنْهِيُّونَ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي إِبْلَاغِ هَذَا الْقَوْلِ، فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ حِينِ نَشْأَتِهِ لَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ قَطُّ، وَكَانَ ذَلِكَ مَصْرَفَةً مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى– إِيَّاهُ عَنْ ذَلِكَ إِلْهَامًا إِلَهِيًّا إِرْهَاصًا لِنُبُوءَتِهِ."(٥)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٥٦٧-٥٦٨)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٠)

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٧٣)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٦٢)

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩٥-١٩٦)

"وهنا سؤال: كيف ينهى النبىّ عن عبادة ما يعبد المشركون، وهو- صلوات الله وسلامه عليه- لم يسجد لصنم، ولم يوجّه وجهه إلى غير الله، قبل أن تأتيه الرسالة، إذ كان له من فطرته السليمة ما عصمه به الله من أن يشتهى هذا الطعام الخبيث، الذي كان يقتات منه قومه؟

والجواب على هذا من وجهين:

فأولا: ليس النهى عن الشيء بالذي يلزم منه أن يكون الموجّه إليه النهى مواقعا له، أو متلبسا به؛ بل يصح أن يكون النهى واقعا على ذات الشيء المنهّى عنه وحده، أشبه بلافتة تشير إلى الخطر الكامن فيه، وتنبه إلى الحذر منه. فإذا نُهى النبي عن الشرك، فإنما يُنهى عن أمر، ينبغى عليه أن يحذره ويتوقاه أبدا، كما يقول الله – سبحانه وتعالى-: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) [الزمر : ٦٥]

وثانيا: أن هذا النهى- وإن كان موجها إلى النبىّ- هو فى حقيقته موجه إلى كلّ مدعوّ إلى الإيمان بالله. فمن أراد أن يدخل فى الإيمان، فلينزع ثوب الشرك أولا، ولينفض يديه، ويخل نفسه من كل ما يصله بتلك المعبودات التي تعبد من دون الله، ثم ليدخل بعد هذا إلى ساحة الإيمان نفيّا، طاهرا من الشرك ورجسه.

وفى قوله تعالى: (لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي) إشارة إلى أن هذا الذي تلقاه النبىّ من نهى عن الشرك، وأمر بالإسلام لربه، إنما كان بعد بعثته، واصطفائه لرسالة ربه، وتلقيه ما ينزل عليه من آياته وكلماته. فهذا النهى وذلك الأمر، إنما هو من محامل الرسالة التي أرسل بها من ربه، وأمر بتبليغها، وإلّا فإنه قبل أن يتلقى هذه الرسالة، لم يكن منهيّا عن شىء أو مأمورا بشىء؛ وإنما كان يأخذ الأمور بما تهديه إليه فطرته، ويدعوه إليه عقله."[(١)]

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٦٣-١٢٦٤)

٤- إنكاره لدعوة المشركين له إلى عبادة معبوداتهم

طمع المشركون أن يشاركهم النبي ﷺ في عبادة معبوداتهم مقابل مشاركته في عبادة الله، ودعوه إلى ذلك، فأظهر إنكاره الشديد لتلك الدعوة التي تكشف عن شدة جهلهم، قال تعالى: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) [الزمر : ٦٤]

"الأصل: تأمروننى أن أعبد، فحذف [أن] ورفع الفعل، كما في قوله: ألا أيهذا الزّاجري أحضر الوغى."(١)

"وَتَقْدِيمُ (أَفَغَيْرَ اللَّهِ) عَلَى (أَبْتَغِي) لِأَنَّ الْمَفْعُولَ هُوَ مَحَلُّ الْإِنْكَارِ. فَهُوَ الْحَقِيقُ بِمُوَالَاةِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ."(٢)

"والأمر ليس أمرا على حقيقته، وإنما هو دعوة من دعوات الضالين للنبي بعبادة غير الله، وذلك بإنكارهم عليه أن يعبد الله، ومفهوم المخالفة لهذا الإنكار، هو أن يعبد غير الله."(٣)

"دلت هذه الآية على أن سفه أُولَئِكَ الكفرة قد بلغ غايته، وجاوز حده؛ حتى دعوا رسول اللَّه ﷺ إلى عبادة من دونه؛ بعد ما عرفوا فضيلة الرسالة والرسول وخصوصيته؛ حتى أنكروا الرسالة في البشر، وبعث البشر رسولا، فلولا ما وقع عندهم من الفضيلة للرسول، والخصوصية له؛ وإلا لم يحتمل أن ينكروا

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ١٤١) صدر بيت (من الطويل) للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد من معلقته، وعجزه: (وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى). والوغى: ساحة الحرب. والبيت في ديوان طرفة بن العبد (ص: ٢٥) طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان البكري الوائلي(٥٦٤م) تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م.

(٢) التحرير والتنوير (٨-أ/ ١٤)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١١٨٩)

وضعها في البشر وبعث البشر رسولا، ثم قد أتاهم رسول اللَّه ﷺ من البيان والحجج ما قد قرر عندهم أنه الرسول إليهم، فمع ما تقرر عندهم ذلك دعوه إلى أن يعبد غير اللَّه دونه، فيكون لهم، فهذا منهم تناقض في القول وسفه؛ حين صيروا المفضل والمخصوص بالرسالة في العبادة من دونه كغير المفضل والمخصوص بها -واللَّه أعلم- ليعلم أنهم لسفههم وتعنتهم كانوا يدعونه إلى عبادة من دون اللَّه، واللَّه أعلم."[١]

"وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ غَبِيٍّ جَاهِلٍ، نَادَاهُمْ بِالْوَصْفِ الْمُقْتَضِي ذَلِكَ فَقَالَ: (أَيُّهَا الْجاهِلُونَ)."[٢]

"ثم يحتمل قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) وجوهًا:

أحدها: أيها الجاهلون في التسوية بين المفضل والمخصوص وبين من لم يخص؛ فذلك في عبادة غير اللَّه.

أو جاهلون عن هداية اللَّه وخصوصيته.

أو جاهلون عن جميع نعمه وإحسانه، حيث لم يذكروه فيها، واللَّه أعلم."[٣]

"وَلَا شَكَّ أَنَّ وَصْفَهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ لَائِقٌ بِهَذَا الْمَوْضِعِ."[٤]

"وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ أَخُو الْعِلْمِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا نُورٌ وَمَعْرِفَةٌ حَقٌّ، وَأَنَّ الْكُفْرَ أَخُو الضَّلَالِ لِأَنَّهُ وَالضَّلَالَ ظُلْمَةٌ وَأَوْهَامٌ بَاطِلَة."[٥]

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٧٠٢)

(٢) البحر المحيط في التفسير (٩/ ٢١٨)

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٧٠٣)

(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٧٢)

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٩)

ومن قبيل هذه الآية في المعنى الإجمالي قوله تعالى:(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : ١- ٦]

"لِمَ ذَكَرَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْكَافِرِينَ، وَفِي الْأُخْرَى بِالْجَاهِلِينَ؟ الْجَوَابُ: لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ بِتَمَامِهَا نَازِلَةٌ فِيهِمْ، فَلَا بُدَّ وأن تكون المبالغة هاهنا أَشَدَّ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا لَفْظٌ أَشْنَعَ وَلَا أَبْشَعَ مِنْ لَفْظِ الْكَافِرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ صِفَةُ ذَمٍّ عِنْدَ جَمِيعِ الْخَلْقِ سَوَاءٌ كَانَ مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا، أَمَّا لَفْظُ الْجَهْلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ التَّقْيِيدِ قَدْ لَا يُذَمُّ."(١)

"الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبدا، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم، في وقت من الأوقات، وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبدا، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافرا."(٢)

"وقوله تعالى: (لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ) أي أنا لا أعبد المعبودات التي تعبدونها. إن لي معبودا لا أعبد سواه.

وقوله تعالى: (وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) أي وأنتم لا تعبدون الإله الذي أعبده أنا. إن لكم آلهة تعبدونها، غير الإله الذي أعبده.

فهناك إذن اختلاف بعيد بيني وبينكم، في ذات المعبود الذي أعبده، وذوات المعبودات التي تعبدونها. هذا هو حالي وحالكم الآن. وهذا هو الحكم فيما أعبد، وفيما تعبدون. وتلك حقيقة لا خلاف بيننا عليها. أنا لا أعبد معبوداتكم، وأنتم لا تعبدون معبودي.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٢٩)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢٤/ ٦٦١)

وقوله تعالى:(وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) هو تعقيب على هذا الحكم العام المطلق، وينبني عليه: أنني لا أنا عابد ما عبدتم، في أي حال من أحوالي، لا حاضرا ولا مستقبلا. ولا أنتم عابدون في المستقبل الإله الذي أعبده. فأنا على ما أنا عليه من عبادة الإله الذي أعبده، لا أتحول عن عبادته، وأنتم على ما أنتم عليه من عبادة ما تعبدون من معبودات لا تتحولون عن عبادتها."[١]

من كل ما تقدم نتبين إلى أي مدى بلغت عناية النبي ﷺ بعبادته لله، ومدى إخلاص العبادة له، ونبذه لكل معبود سواه، وتأكيده للمشركين بعده التام عن عبادة أي شيء سواه، في صراحة تامة ووضوح شديد دون مواربة أو تعريض، ولا غرو فهو بهذا يؤسس لخير أمة أخرجت للناس، لها فيه الأسوة الكريمة والقدوة العظيمة.

(١) – التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٩٦-١٦٩٧)

خامسا: كلامه عن دعوته إلي اللّه

من كلامه عن علاقته بربه كلامه عن دعوة الناس إلي الإيمان بالله واتباع المنهج الإلهي في جميع شؤون حياتهم، من ذلك قوله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف : ١٠٨]

"هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته سبيلي وطريقتي ودعوتي، أدعو إلى الله وحده لا شريك له، على بصيرة بذلك ويقينٍ عليمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضًا من اتبعني وصدقني وآمن بي."(١)

"الإشارة هنا إلى ما يدعوهم إليه من التوحيد في العبادة، وألا يشركوا باللَّه شيئا، وأن يؤمنوا بالبعث والنشور، وأنهم يموتون كما ينامون، ويحيون كما يصحون، ومن ذلك تكون الجنة أبدا أو النار أبدا، فهذه الدعوة هي سبيلي التي أسلكها، لَا أحيد، وماضٍ فيها، وأدعو إليها، أنا مستمر في الدعوة إلى أن يقبضني الله –تعالى–، (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) يحملون عبء التكليف بهذه الدعوة والسير في سبيلها غير وانين ولا مقصرين ... وقوله تعالى: (عَلَى بَصِيرَةٍ)، أي على علم بالحق وحجته ودليله، وهذا يدل على وجوب علم الداعي، وأن يكون له بصيرة نافذة يدرك الحق ويعلم نفوس الناس، وما يجب اتباعه لدعوتها."(٢)

"والبصر كما نعلم للمُحسَّات، والبصيرة للمعنويات.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٦/ ٢٩١)

(٢) زهرة التفاسير (٧/ ٣٨٧٣)

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوب بنور يُقنِع النفس البشرية، وإنْ لم تَكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع."[١]

"وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله -تعالى- أن يكون عارفا بطريق الإيصال إليه سبحانه عالما بما يجب له تعالى وما يجوز وما يمتنع عليه جل شأنه."[٢]

ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) [الرعد : ٣٦]

"جُمْلَة: (إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ) بَيَانٌ لِجُمْلَةِ: (إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ) أَيْ: أَنْ أَعْبُدَهُ وَأَنْ أَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِذَلِكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ اسْتُفِيدَ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ."[٣]

"وَالْمُرَادُ مِنْهُ: أَنَّهُ كَمَا وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ بِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ فَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ إِلَى عُبُودِيَّةِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى نُبُوَّتِهِ."[٤]

"وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِاخْتِصَاصِ، أَيْ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ أَدْعُو، أَيْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَإِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ مَآبِي، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ يُرْجِعُونَ فِي مُهِمَّهُمْ إِلَى الْأَصْنَامِ يَسْتَنْصِرُونَهَا وَيَسْتَغِيثُونَهَا،"[٥]

"وفى قوله تعالى: (إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ) أسلوب قصر، يراد به أن الرسول لا يدعو إلا إلى الله وحده، وأنه إذا كان لأهل الكتاب دعوة إلى إله غير

---

(١) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧١٢٥)
(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٧/ ٧٨)
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨)
(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٩/ ٤٨)
(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٩)

الله، فلا شأن له بهم، أمّا هو فإن دعوته إلى إله واحد لا شريك لـــه، وأن مآبـــه ومرجعه إليه، فإذا كان في أهل الكتاب من يرى له مرجعا إلى غير الله فذلك رأيه، وعليه تبعته؛ أما الرسول فإنه لا مرجع له إلا إلى الله."[١]

واضح في الآيتين الكريمتين التعبير بالفعل المضارع [أدعو]، وفي هـــذا إشارة إلى استمراره في الدعوة إلى الله وعدم انقطاعه عنها أبدا.

(١) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٣٩)

سادسا: كلامه عن استشهاده باللّه على صدقه

قُوبل النبي ﷺ في دعوته بالإنكار والتكذيب، وفي سبيل مواجهة هـؤلاء المكذبين المنكرين لجأ إلى الله يستشهد به على صدقه.

من الآيات التي جاء فيها استشهاده بالله على صدقه قول الله تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنـذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) [الأنعام : ١٩]

"يقول –تعالى ذكره– لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذّبون ويجحدون نبوَّتك من قومك: أيُّ شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة:[الله] الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثم قل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيدٌ بيني وبينكم، بالمحقِّ منا من المبطل، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضينا به حكمًا بيننا."(١)

"وأراد: أي شهيد أَكْبَرُ شَهادَةً؟ فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم، (قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: (قُلِ اللَّهُ) بمعنى الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ: شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، أي: هو شهيد بيني وبينكم. وأن يكون (اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) هو الجواب، لدلالته على أنّ الله –عزّ وجلّ– إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له."(٢)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١١/ ٢٨٩)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١١)

ومن الآيات التي تكلم فيها عن استشهاده بالله على صدقه قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ [الرعد : ٤٣]، وقوله تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) [الإسراء : ٩٦]، وقوله تعالى: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [العنكبوت : ٥٢] وقولبه تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الأحقاف : ٨]

تجتمع هذه الآيات على بيان الاكتفاء بشهادة الله عن شهادة ما سواه، وفي هذا إشعار بمدى صدقه مع نفسه وصدقه مع الآخرين.

"وَالْمُرَادُ مِنْ تِلْكَ الشَّهَادَةِ أَنَّهُ -تَعَالَى- أَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى كَوْنِهِ صَادِقًا فِي ادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ، وَهَذَا أَعْلَى مَرَاتِبِ الشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ قَوْلٌ يُفِيدُ غَلَبَةَ الظَّنِّ بِأَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ. أَمَّا الْمُعْجِزُ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مَخْصُوصٌ يُوجِبُ الْقَطْعَ بِكَوْنِهِ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ -تَعَالَى-، فَكَانَ إِظْهَارُ الْمُعْجِزَةِ أَعْظَمَ مَرَاتِبِ الشَّهَادَةِ."(١)

"وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمَّا أَظْهَرَ الْمُعْجِزَةَ عَلَى وَفْقِ دَعْوَايَ كَانَ ذَلِكَ شَهَادَةً مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- عَلَى كَوْنِي صَادِقًا، وَمَنْ شَهِدَ اللَّهُ عَلَى صِدْقِهِ فَهُوَ صَادِقٌ."(٢)

"قيل: جعل هذا شهادة -وهو فعل والشهادة قول- على سبيل الاستعارة، لأنه يغني عن الشهادة بل هو أقوى. انتهى. ولا يخفى أن الشهادة أعمّ من القول والفعل."(٣)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٩/ ٥٤)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٠)

(٣) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٢٩٤)

"وَقَالَ: (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)، وَلَمْ يَقُلْ: (بَيْنَنَا)، تَحْقِيقًا لِلْمُفَارَقَةِ الْكُلِّيَّةِ"(١)

"وَلَمَّا كَانَتِ الشَّهَادَةُ للرسول-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسّلام- بِالصِّدْقِ شَهَادَةً عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ جُعِلَتِ الشَّهَادَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ."(٢)

"ثُمَّ إِنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ أَقْوَى فِي إِلْزَامِهِمْ مِنْ شَهَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ."(٣)

"ولكن، هل الله سيشهد، ولِمَنْ سيقول شهادته؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذي نزل على رسوله ﷺ؟

ونقول: لقد أرسله الحق -سبحانه- بالمعجزة الدَّالة على صِدْق رسالته في البلاغ عن الله، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون.

وقد جعلها الحق -سبحانه- رسالةً بين يدي رسوله وعلى لسانه؛ فهذا يعني أنه -سبحانه- قد شهد له بأنه صادق."(٤)

"ويصح أن تقول: (شَهِيدًا) معناه حاكم، لأن الشهادة تجيء بمعنى الحكم، كما في قوله تعالى: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) [يوسف : ٢٦]، والمعنى وكفى بالله حاكما بيني وبينكم، ويرشح لهذا المعنى عبارة (بيني وبينكم)، فالحكم هو الذي يكون بين اثنين، وأما الشهادة فتكون لأحد الفريقين على الآخر."(٥)

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠٩)

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٥)

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٦)

(٤) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٤١٤)

(٥) زهرة التفاسير (٨/ ٣٩٧٤)

سابعا: كلامه عن تحكيم الله في كل أموره

قال تعالى: (أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً) [الأنعام : ١١٤]

"[الهمزة] للإنكار، و [الفاء] للعطف على مقدر يقتضيه الكلامُ، أي: قل لهم: أأميلُ إلى زخارف الشياطينِ فأبتغيَ حكماً غيرَ الله يحكمُ بيننا ويفصل المحِقَّ منا من المبْطِل."(١)

"الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ الإنكاري: أَي إِن ظَنَنْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَنَنْتُمْ مُنْكَرًا.

وَتَقْدِيمُ (أَفَغَيْرَ اللَّهِ) عَلَى (أَبْتَغِي) لِأَنَّ الْمَفْعُولَ هُوَ مَحَلُّ الْإِنْكَارِ. فَهُوَ الْحَقِيقُ بِمُوَالَاةِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ."(٢)

"الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لَا أبتغي غير الله -تعالى- حكما، وقد قدم [غير الله] لمزيد استنكار ذلك، وإنه غير معقول وغير جائز، وغير مقبول في ذاته."(٣)

"أي: قل: فليس لي أن أتعدَّى حكمه وأتجاوزه، لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه."(٤)

"وساعة تقول: (أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً؟) فهذا دليل على أنك واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا: لا تبتغي حكما إلا الله، ولذلك يطرح المسألة في صيغة استفهام."(٥)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ١٧٦-١٧٧)

(٢) التحرير والتنوير (٨-أ/ ١٤)

(٣) زهرة التفاسير (٥/ ٢٦٣٧)

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (١٢/ ٦٠)

(٥) تفسير الشعراوي (٧/ ٣٨٨٦)

"يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ مَا طَلَبُوهُ مِنْهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَكَمًا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ."(١)

"الابتغاء من [بغى] بمعنى: طلب، ومن موضع الاستنكار أن يرضي بغير الله حكما، فضلا عن أن يبتغيه، ويطلبه طلبا مشددا فيه، كما يريدون أن يطلب النبي ﷺ."(٢)

"و[حَكَماً] أبلغ من [حاكم]، إذ هي صيغة للعدل من الحكام، و[الحاكم] جار على الفعل، فقد يقال للجائر."(٣)

"قِيلَ: [الْحَكَمُ] أَبْلَغُ مِنَ [الْحَاكِمِ]، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّسْمِيَةَ بِحَكَمٍ إِلَّا مَنْ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ، لِأَنَّهَا صِفَةُ تَعْظِيمٍ فِي مَدْحٍ. وَالْحَاكِمُ صِفَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى الْفِعْلِ، فَقَدْ يُسَمَّى بِهَا مَنْ يَحْكُمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ."(٤)

"وَ[الْحَكَمُ] أَبْلَغُ مِنَ [الْحَاكِمِ] لِأَنَّهُ مَنْ عُرِفَ مِنْهُ الْحُكْمُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَ[الْحَاكِمُ] اسْمُ فَاعِلٍ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ."(٥)

"(وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب) جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ لإنكارِ ابتغاءِ غيرِه – تعالى– حكماً، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصةً، مع أن مقتضى المقامِ إظهارُ تساوي نسبته إلى المتحاكمين لاستمالتهم نحوَ المُنْزَل، واستنزالِهم إلى قبول حكمه، بإبهام قوةِ نسبتِه إليهم، أي: أغيرَه – تعالى– أبتغي حكَماً والحالُ أنه هو الذي أنزل

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٧٦)

(٢) زهرة التفاسير (٥/ ٢٦٣٧)

(٣) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٣٧)

(٤) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (٧/ ٧٠) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

(٥) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦٢٧)

عليكم وأنتم أمِّية لا تدرون ما تأتونَ وما تذرونَ القرآنَ الناطقَ بالحق والصواب الحقيقُ بأن يُخصَّ به اسمُ الكتاب (مُفَصَّلاً) أي: مبيناً فيه الحقُّ والباطلُ والحلالُ والحرامِ، وغيرُ ذلك من الأحكام، بحيث لم يبْقَ في أمور الدينِ شيءٌ من التخليط والإبهامِ، فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى الحكم؟."[١]

"ولم يقل رسول الله: وهو الذي أنزل إليّ الكتاب، بل قال مبلغاً عن رب العزة: (وهُوَ الذي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب) كأن العداوة ليست لمحمد وحده، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها، والحكم لأمة الإيمان كلها. ومع أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ أولاً، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس، والغاية منه للمؤمنين كلهم، وهكذا تكون العداوة للنبي عداوة للمؤمنين كلهم."[٢]

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ١٧٧)
(٢) تفسير الشعراوي (٧/ ٣٨٨٦)

ثامنا: كلامه عن خوفه من معصية اللّه وعذابه

على الرغم من كونه ﷺ معصوما من فعل المعصية، إلا أنه تكلم عن خوفه من معصية الله، ليكون في ذلك بيان لغير المعصوم، قال تعالى: (قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الأنعام : ١٥، الزمر : ١٣] وفي سورة يونس: (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [يونس : ١٥]

"قَدَّمَ ذِكْرَ الْخَوْفِ عَلَى شَرْطِهِ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَهَمُّ الْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ، وَشَرْطُ [إِنْ] لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ."(١)

"الظَّاهِرُ أَنَّ الْخَوْفَ هُنَا عَلَى بَابِهِ، وَهُوَ تَوَقُّعُ الْمَكْرُوه ... وَالْخَوْفُ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لِعِصْمَتِهِ."(٢)

"الخوف هاهنا ليس هو حقيقة الخوف، ولكن العلم كأنه قال: إني أعلم إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم."(٣)

"وقوله: (أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ) فعل معلق بشرط وهو العصيان، وقد علم أنه -عليه السلام- معصوم منه، ولكنه خطاب للأمة يعمهم حكمه ويحفهم وعيده."(٤)

"فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: (قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهِ لَمَا كَانَ خَائِفًا.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم = تفسير المنار (٧/ ٢٧٨) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٤٥٤)

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٦٦٧)

(٤) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٥٢٤)

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، بَلِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَدَرَ عَنْهُ الْكُفْرُ وَالْمَعْصِيَةُ فَإِنَّهُ يَخَافُ. وَهَذَا الْقَدْرُ لَا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ الْخَوْفِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُنَا: إِنْ كَانَتِ الْخَمْسَةُ زَوْجًا كَانَتْ مُنْقَسِمَةً بِمُتَسَاوِيَيْنِ، وهذا لا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَمْسَةَ زَوْجٌ وَلَا عَلَى كَوْنِهَا مُنْقَسِمَةً بِمُتَسَاوِيَيْنِ واللَّه أَعْلَمُ."(١)

"والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتهويل أمرِ العصيان وإظهارِ كمال نزاهته ﷺ عنه."(٢)

"وجيء بالماضي (عصيتُ) إبرازا له في صورة الحاصل على سبيل الفرض، تعريضا بمن صدر عنهم ذلك. وحيث كان تعريضا لهم –والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك– لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ... وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعا عاديّا، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان. وهذا لا يدل على حصول الخوف."(٣)

"فذِكْرُ هذه الحال من النبي ﷺ تنبيهٌ لهم إلى أنهم في مقام من يخاف عذاب يوم عظيم.

ففي هذا النص إنذار لهم بأن عذاب يوم عظيم ينتظرهم، وأنه يجب أن يخافوه، ويتقوه، بأن يقلعوا عما هم فيه من الوقوع في أسبابه، وهو العصيان، وأكبر العصيان الشرك، وأنذروا بأدق تعبير، وأنصف تصوير، وأبلغ بيان إذ جعلت حال النبي ﷺ من الخوف من عذاب الله – إن عصى– منبهة إلى الاقتداء، والتفتيش عماهم فيه من معصية.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٣)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٢٩)

(٣) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٤/ ٣٢٦)

وفى الموضع كلام في عصيان الأنبياء أيتصور وقوعه؟ ونقول: إن الأنبياء معصومون عن العصيان، ولكن الخوف من العصيان يعتريهم؛ لأنهم لفرط إحساسهم بعظمة الله وإيمانهم بحسابه وعقابه وثوابه، ورقابتهم النفسية لله يكونون دائما في خوف ووجل، لَا لتوقع العصيان، ولكن رهبة من الديَّان."[١]

"ويفهم من كلام بعضهم أن خوف المعصوم من المعصية لا ينافي العصمة لعلمه أن الله –سبحانه وتعالى– فعال لما يريد، وأنه لا يجب عليه شيء."[٢]

(١) زهرة التفاسير (٥/ ٢٤٥٦)

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ١٠٦)

الفصل الثاني

قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ

عن علاقته بالقرآن الكريم وعن علاقته بالدين

في هذا الفصل تتجه القراءة التحليلية في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم إلى كلامه عن علاقته بهذا القرآن معجزته الخالدة، كما تتجه إلى كلامه عن علاقته بدينه الذي جاء به هداية للإنسانية في كل زمان ومكان.

أولا: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالقرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ومعجزته الباقية، قال عنه الله مخاطبا نبيه ﷺ: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً) [الإنسان : ٢٣]، وقال: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء : ١٩٢- ١٩٥]

كان قلب النبي ﷺ مستودعا لهذا القرآن، كما "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"(١).

كان القرآن معه في الظاهر والباطن، ولم لا وهو الرسول والقرآن هو الرسالة؟ من ثم حفل كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم ببيان تلك العلاقة بينهما في آيات كثيرة منها دارت حول عدة محاور من أبرزها المحاور الآتية.

١- أن هذا القرآن وحي الله الذي أوحاه إليه

قال تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) [الأنعام : ١٩]

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤٢/ ١٨٣) من حديث السيدة عائشة -رضي الله عنها-. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

"فَهَذَا تَقْرِيرٌ وَاضِحٌ."[١]

"كأنه قال: أوحي إليَّ هذا القرآن الذي تعرفون أنه من عند اللَّه جاء."[٢]

"أوحى إلىّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبي فيما جئت به مؤيدا بشهادته – سبحانه– وأنذر من بلغه هذا القرآن، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة."[٣]

"وَحُذِفَ فَاعِلُ الْوَحْيِ وَبُنِيَ فِعْلُهُ لِلْمَجْهُولِ لِلْعِلْمِ بِالْفَاعِلِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ وَهُوَ اللَّهُ –تَعَالَى–، وَالْإِشَارَةُ بِـ (هذَا الْقُرْآنُ) إِلَى مَا هُوَ فِي ذِهْنِ الْمُتَكَلِّمِ وَالسَّامِعِ. وَعَطْفُ الْبَيَانِ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ بَيَّنَ الْمَقْصُودَ بِالْإِشَارَةِ.

وَاقْتَصَرَ عَلَى جَعْلِ عِلَّةِ نُزُولِ الْقُرْآنِ لِلنِّذَارَةِ دُونَ ذِكْرِ الْبِشَارَةِ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ فِي حَالِ مُكَابَرَتِهِمُ الَّتِي هِيَ مَقَامُ الْكَلَامِ لَا يُنَاسِبُهُمْ إِلَّا الْإِنْذَارُ، فَغَايَةُ الْقُرْآنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِهِمْ هِيَ الْإِنْذَارُ، وَلِذَلِكَ قَالَ: (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) مُصَرِّحًا بِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ. وَلَمْ يَقُلْ: (لِأُنْذِرَ بِهِ) وَهُمُ الْمَقْصُودُ ابْتِدَاءً مِنْ هَذَا الْخِطَابِ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْطُوفُ عَلَى ضَمِيرِهِمْ يُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ. عَلَى أَنَّ لَامَ الْعِلَّةِ لَا تُؤْذِنُ بِانْحِصَارِ الْعِلَّةِ فِي مَدْخُولِهَا إِذْ قَدْ تَكُونُ لِلْفِعْلِ الْمُعَدَّى بِهَا عِلَلٌ كَثِيرَةٌ.

(وَمَنْ بَلَغَ) عَطْفٌ عَلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ، أَيْ وَلِأُنْذِرَ بِهِ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ وَسَمِعَهُ وَلَوْ لَمْ أُشَافِهْهُ بِالدَّعْوَةِ، فَحَذَفَ ضَمِيرَ النَّصْبِ الرَّابِطَ لِلصِّلَةِ لِأَنَّ حَذْفَهُ كَثِيرٌ حَسَنٌ، كَمَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ. وَعُمُومُ [مَنْ] وَصِلَتِهَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ الْقُرْآنُ فِي جَمِيعِ العصور."[٤]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٧)

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٤١)

(٣) تفسير المراغي (٧/ ٩٢) أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٨)

"مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا بَلَغَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ."(١)

"مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَى مُحَمَّدًا ﷺ وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ فَيَحْصُلُ فِي الْآيَةِ حَذْفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْعَائِدَ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، كَمَا يُقَالُ الَّذِي رَأَيْتُ زَيْدٌ، وَالَّذِي ضَرَبْتُ عَمْرٌو. وَفِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: (وَمَنْ بَلَغَ) قَوْلٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: (وَمَنْ بَلَغَ) أَيْ: وَمَنِ احْتَلَمَ وَبَلَغَ حَدَّ التَّكْلِيفِ، وَعِنْدَ هَذَا لَا يُحْتَاجُ إِلَى إِضْمَارِ الْعَائِدِ إِلَّا أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى الْقَوْلِ الأول."(٢)

٢- أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند نفسه

من الآيات التي بينت ذلك قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ) [هود : ٣٥]

"مَعْنَى افْتَرَاهُ: اخْتَلَقَهُ وَافْتَعَلَهُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَالْهَاءُ تَرْجِعُ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي بَلَّغَهُ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ: فَعَلَيَّ إِجْرَامِي الْإِجْرَامُ اقْتِرَاحُ الْمَحْظُورَاتِ وَاكْتِسَابُهَا، وَهَذَا مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: فَعَلَيَّ عِقَابُ إِجْرَامِي، وَفِي الْآيَةِ مَحْذُوفٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ عِقَابُ جُرْمِي، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا وَكَذَّبْتُمُونِي فَعَلَيْكُمْ عِقَابُ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ، إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: (أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ) [الزُّمَر: ٩] وَلَمْ يَذْكُرِ الْبَقِيَّةَ، وَقَوْلُهُ: (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) أَيْ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِقَابِ جُرْمِكُمْ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ كَلَامِ نُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَقَوْلُهُمْ بَعِيدٌ جِدًّا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَقَعَتْ فِي قِصَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَثْنَاءِ حِكَايَةِ نُوحٍ.

---

(١) تفسير مجاهد (ص: ٣٢٠) أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (١٠٤هـ) تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، بدون تاريخ.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٩٩)

وَأَيْضًا قَوْلُهُ: (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي) لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ شَاكًّا، إِلَّا أَنَّهُ قَوْلٌ يُقَالُ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ عِنْدَ الْيَأْسِ مِنَ القبول."(١)

"أي: إن يكن ما جئت به هو اختلاق وكذب، فهو جريمة منكرة، وإثم غليظ، ولكن تبعة هذا الجرم عليّ وحدي، إن يكن ما جئت به مفترى على الله، وليس عليكم منه شيء، وإنما عليكم تبعة هذا الجرم الذي أنتم فيه، وهو الكفر بالله، وأنا بريء مما أجرمتم، وممّا يصيبكم منه من عذاب عظيم.

وقد جاءت هذه الآية في ثنايا قصة نوح ليلتفت إليها المشركون، وكأنّها قصتهم، ثم لينتبهوا إلى ما سيجيء بعدها من أخذ الله -سبحانه وتعالى- للظالمين والمكذبين."(٢)

"وَجُمْلَةُ (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، فَهِيَ ابْتِدَائِيَّةٌ.

وَظَاهِرُهَا أَنَّهَا تَذْيِيلٌ لِلْكَلَامِ وَتَأْيِيدُهُ بِمُقَابِلِهِ، أَيْ فَإِجْرَامِي عَلَيَّ لَا عَلَيْكُمْ كَمَا أَنَّ إِجْرَامَكُمْ لَا تَنَالُنِي مِنْهُ تَبِعَةٌ .... وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَوْجِيهٌ بَدِيعٌ وَهُوَ إِفَادَةُ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَفْتَرِيَ الْقُرْآنَ فَإِنَّ افْتِرَاءَ الْقُرْآنِ دَعْوًى بَاطِلَةً ادَّعَوْهَا عَلَيْهِ فَهِيَ إِجْرَامٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ قَوْلِكُمُ الَّذِي تُجْرِمُونَهُ عليّ بَاطِلا."(٣)

ومنها قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الأحقاف : ٨]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٧/ ٣٤٣)
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١١٣٧)
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٥)

"ومعنى الهمزة في [أم] الإنكار والتعجيب، كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب، وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله، ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا.

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ على سبيل الفرض عاجلني الله -تعالى- لا محالة بعقوبة الافتراء عليه. فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنى، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه." (١)

"في هذا الموقف يلقاهم، رد آخر في قوله تعالى: (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) وهذا الرد يتجه إلى الافتراء من حيث هو كذب على الله، وعدوان عليه -سبحانه وتعالى- وأن من افترى على الله فقد تعرض لسخطه ونقمته، وأنه لا أحد يدفع عن المفترى على الله سخط الله وعذاب الله، فلمَ يفترى النبي على الله؟ ولمَ يعرض نفسه لهذا البلاء؟"(٢)

"وَالتَّقْدِيرُ: إِنِ افْتَرَيْتُهُ عَاقَبَنِي اللَّهُ مُعَاقَبَةً لَا تَمْلِكُونَ رَدَّهَا. فَقَوْلُهُ: (فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) دَلِيلٌ عَلَى الْجَوَابِ الْمُقَدَّرِ فِي الْكَلَامِ بِطَرِيقِ الِالْتِزَامِ، لِأَن معنى (فَلا تَمْلِكُونَ لِي) لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ ضُرِّ اللَّهِ عَنِّي، فَاقْتَضَى أَنَّ الْمَعْنَى: إِنِ افْتَرَيْتُهُ عَاقَبَنِي اللَّهُ وَلَا تَسْتَطِيعُونَ دَفْعَ عِقَابِهِ."(٣)

ومنها قوله تعالى: (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي) [يونس : ١٥]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٩٦-٢٩٧)

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٢٦٧)

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤)

"وهذا الرد كان على التبديل؛ ولذلك نقول: إن الجواب أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يكون إغفالا لطلب الإتيان بقرآن غير هذا باعتباره كلاما عابثا؛ إذ ما داموا قد سلموا بالمعجزة القرآنية، فلا فرق بين قرآن وقرآن، ما داموا قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

ثاني الأمرين: الذي يحتمل أن يكون فيه الجواب، أن التبديل للمعجزة يشمل تغيير القرآن والإتيان بمعجزة أخرى، فكان الرد على التبديل شاملا الاعتراضين، وفي رد النبي – صلى الله عليه وسلم –: (مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) أي ليس لي أن أختار من تلقاء نفسي إنما الاختيار لله –سبحانه وتعالى–."[١]

"وفى هذا ردّ ضمني على المشركين بأن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد، إذ لو كان من عند محمد، لكان إلى يده تغييره أو تبديله."[٢]

"فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل، فإمّا أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله."[٣]

وبعدها مباشرة قوله تعالى: (قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) [يونس : ١٦].

"(قُل لَّوْ شَاء الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) تحقيقٌ لحقية القرآنِ وكونِه من عند الله – تعالى– إثرَ بيانِ بطلانِ ما اقترحوا الإتيانَ به، واستحالتِه عبارةً ودلالةً، وإنما

---

(١) زهرة التفاسير (٧/ ٣٥٣٣-٣٥٣٤)

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٩٧٢-٩٧٣)

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٣٣٤)

صُدِّر بالأمر المستقلِّ [قل] مع كونه داخلاً تحت الأمرِ السابق إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً، فإنه برهانٌ دالٌّ على كونه بأمر الله – تعالى– ومشيئته."(١)

"وَفِي هَذَا الْجَوَابِ اسْتِدْلَالٌ عَلَى أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِقِ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِهِ، بِدَلِيلِ الْتَفَتْ فِي مَطَاوِيهِ أَدِلَّةٌ، وَقَدْ نُظِّمَ فِيهِ الدَّلِيلُ بِانْتِفَاءِ نَقِيضِ الْمَطْلُوبِ عَلَى إِثْبَاتِ الْمَطْلُوبِ، إِذْ قَوْلُهُ: (لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ) تَقْدِيرُهُ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مَا تَلَوْتُهُ. فَإِنَّ فِعْلَ الْمَشِيئَةِ يَكْثُرُ حَذْفُ مَفْعُولِهِ فِي جُمْلَةِ الشَّرْطِ لِدَلَالَةِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى عَدَمِ مَشِيئَةِ اللَّهِ نَفْيَ تِلَاوَتِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ مُدَّعَى الْكُفَّارِ، لِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَكَانَ الِاسْتِدْلَالُ إِبْطَالًا لِدَعْوَاهُمُ ابْتِدَاءً وَإِثْبَاتًا لِدَعْوَاهُ مَآلًا، وَهَذَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ مِنْ بَدِيعِ الِاسْتِدْلَالِ، أَيْ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا آتِيَكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ لَمَا أَرْسَلَنِي بِهِ وَلَبَقِيتُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِي."(٢)

"قَوْلُهُ: (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ) تَعْلِيلٌ لِكَوْنِ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا التَّبْلِيغُ، أَيْ: قَدْ أَقَمْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَيْ: زَمَانًا طَوِيلًا، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ، تَعْرِفُونَنِي بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، لَسْتُ مِمَّنْ يَقْرَأُ، وَلَا مِمَّنْ يَكْتُبُ، (أَفَلا تَعْقِلُونَ) الْهَمْزَةُ: لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ: أَفَلَا تَجْرُونَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ مِنْ عَدَمِ تَكْذِيبِي لِمَا عَرَفْتُمْ مِنَ الْعَادَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ إِلَى الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَعَدَمِ قِرَاءَتِي لِلْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الرُّسُلِ، وَتَعَلُّمِي لِمَا عِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا طَلَبِي لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ وَلَا حِرْصِي عَلَيْهِ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْهُ، وَقَصَّرْتُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَأَنْتُمُ

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٢٩)
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٠)

الْعَرَبُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِكَمَالِ الْفَصَاحَةِ الْمُعْتَرَفُ لَهُمْ بِأَنَّهُمُ الْبَالِغُونَ فِيهَا إِلَى مَبْلَغٍ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ غَيْرُكُمْ؟"[١]

"قد لبثت فيما بين ظَهْرانيكم قبل الوحي لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدالٍ ولا أحوم حولَ مقالٍ فيه شائبةُ شبهةٍ فضلاً عما فيه كذبٌ أو افتراءٌ، ألا تلاحظون فلا تعقِلون أن مَنْ هذا شأنُه المطردُ في هذا العهد البعيدِ مستحيلٌ أن يفترى على الله -عزَّ وجلَّ- ويتحكم على كافة الخلق بالأوامر والنواهي الموجبةِ لسلب الأموالِ وسفكِ الدماءِ ونحو ذلك؟."[٢]

"لو كنت منتحلا ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيّام شبابي وحَداثتي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم؟ فقد كان لي اليوم -لو لم يوح إليّ وأومر بتلاوته عليكم- مندوحةٌ عن معاداتكم، ومتّسَعٌ في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحى إلي وأومر بتلاوته عليكم."[٣]

٣- اتباعه لهذا الوحي

قال تعالى:(إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) [الأنعام : ٥٠/ يونس : ١٥/ الأحقاف : ٩]

"ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ، وتنزيله الذي ينزله عليّ، فأمضي لوحيه وأئتمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة - من الله- عذركم على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٩٠)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٣٠-١٣١)

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان (١٥/ ٤١-٤٢)

وذلك تنبيه من الله تعالى نبيَّه ﷺ على موضع حُجته على منكري نبوّته من مشركي قومه."[١]

"ما أفعلُ إلا اتباعَ ما يُوحَى إليَّ من غير أن يكون لي مدخَلٌ ما في الوحي أو في الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجهٍ آخرَ من الوجوه أصلاً."[٢]

"على مَعْنى قصرِ أفعالِه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- على اتباعِ الوَحي لا قصر اتباعه على الوجي كما هو المتسارعُ إلى الأفهامِ."[٣]

"وحاصله: أني عبد يمتثل أمر مولاه ويتبع ما أوحاه، ولا أدعي شيئا من تلك الأشياء حتى تقترحوا علي ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة. ولا يخفى أن هذا أبلغ من أني نبي أو رسول ولذا عدل إليه."[٤]

"فَمَعْنَى [أَتَّبِعُ] مَجَازٌ مُرْسَلٌ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى الشَّيْءِ وَمُلَازَمَتِهِ دُونَ غَيْرِهِ. لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ مَعْنَى الِاتِّبَاعِ الْحَقِيقِيِّ وَهُوَ الْمَشْيُ خَلْفَ الْمُتَّبَعِ-بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ-، أَيْ لَا أَحِيدُ عَنْ تَبْلِيغِ مَا يُوحَى إِلَيَّ ... فَالتَّلَقِّي وَالتَّبْلِيغُ هُوَ مَعْنَى الِاتِّبَاعِ، وَهُوَ كُنْهُ الرِّسَالَةِ عَنِ اللَّهِ -تَعَالَى-، فَالْقَصْرُ الْمُسْتَفَادُ هُنَا إِضَافِيٌّ."[٥]

"وظاهر هذه الآية يدل على أنه ﷺ ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامر الله ونواهيه إنما كانت بوحي، ولكن المرجح أنه يجتهد."[٦]

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١١/ ٣٧١)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ١٣٧)

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٨٠)

(٤) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ١٤٨)

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٢)

(٦) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٤٢١) شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية)-القاهرة، ١٢٨٥هـ.

وقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي) [الأعراف : ٢٠٣]

"إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولا وينشئه فيدعو الناس إليه."(١)

"وَمَعْنَاهُ: لَيْسَ لِي أَنْ أَقْتَرِحَ عَلَى رَبِّي فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا أَنْتَظِرُ الْوَحْيَ فَكُلُّ شَيْءٍ أَكْرَمَنِي بِهِ قُلْتُهُ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ السُّكُوتُ وَتَرْكُ الِاقْتِرَاحِ."(٢)

"وفي التعرُّض لوصفِ الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكية والتبليغِ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه ﷺ والتنبيهِ على تأييده ما لا يخفى."(٣)

٤- هذا القرآن هو سر هدايته

بعلن النبي ﷺ للجميع أن أي هدايتة له فإنما سرها هذا القرآن الذي يوحيه إليه ربه، قال تعالى: (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) [سبأ : ٥٠]

"وإن استقمت على الحق فبوحي الله الذي يوحِي إلي، وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى."(٤)

"يعنى: إن كان هذا هداية فليس من قبل نفسي، ولا من عند أحد من أهل هذا البلد، لظهور أنى أمي ما كتبت ولا قرأت على أحد، فليس هو إلا مستفادا من الله وحيا، فيجب عليكم أن تتبعوني فتهتدوا كما اهتديت، فهذا استدلال على النبوة."(٥)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٣/ ٣٤٣)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٣٨-٤٣٩)

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٣٠٩)

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (٢٠/ ٤٢٠)

(٥) التفسير المظهري (٨/ ٣٨) محمد ثناء الله المظهري (١٢٢٥هـ) تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية – الباكستان، ١٤١٢ هـ.

"وفى قوله تعالى: (فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) إشارة إلى أن هدى القرآن هو الهدى، وأنه لا هدى إلا منه، وأن من التمس الهدى في غيره ضلّ، وخاب وخسر.

وفى هذا إشارة -أيضا- إلى أن مصدر الهدى، هو الله -سبحانه وتعالى- وأنه من هذا الهدى الإلهي يهتدي النبي ويهتدي المهتدون، فالنبي-وهو رسول الله- إنما يلتمس الهدى من هذا القرآن، الذي هو حقّ للناس جميعا، ليس للنبي فيه إلا ما للناس جميعا ... وفى هذا أيضا دعوة إلى من يجدون في أنفسهم أنفة أو كبرا أن يأخذوا من القرآن حظهم من الهدى إذ كان النبي هو الذي يحمله ويدعو إليه- في هذا دعوة لهم أن يتخففوا من هذا الشعور، وأن ينظروا إلى القرآن باعتبار المصدر الذي جاء منه، وأنه من عند الله، وليس من عند محمد، وأن محمدا يأخذ حظّه من هدى الله هذا، فليأخذوا هم حظهم كذلك في غير حرج، وليرتووا من هذا النبع العذب، وألا يهلكوا أنفسهم، بسبب أن كان القائم على هذا النبع رجلا منهم.:"[١]

٥- إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله -تعالى-

من لوازم الإيمان بالقرآن الكريم الإيمان بجميع الكتب السابقة التي أنزلها الله -تعالى-، من ثم أعلن النبي ﷺ إيمانه بجميع هذه الكتب، قال تعالى: (وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ) [الشورى : ١٥]

"صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلا أو زبورا أو صحف إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك."[٢]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨٤٤-٨٤٥)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥١٦)

"آمَنْتُ بكتب اللَّه كُلِّهَا، لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض."[١]

"وفيه تحقيقٌ للحقِّ وبيانٌ لاتفاق الكتبِ في الأصل وتأليفٌ لقلوب أهلِ الكتابينِ وتعريضٌ بهم"[٢] "

لا كما قالت اليهود والنصارى نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا."[٣] "

فَلَا يُقَابِلُ إِنْكَارَهُمْ حَقِّيَّةَ كِتَابِهِ بِإِنْكَارِهِ حَقِّيَّةَ كِتَابِهِمْ وَفِي هَذَا إِظْهَارٌ لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ دَعْوَتُهُ مِنَ الْإِنْصَافِ."[٤]

"وتنكير [الكتاب] في قوله تعالى: (مِنْ كِتابٍ) وجرّه بـ [من] الدالة على الاستغراق للإشارة إلى أن النبي مؤمن بكل كتاب نزل من عند الله."[٥]

"و (مِنْ كِتابٍ) بَيَانٌ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَالتَّنْكِيرُ فِي كِتابٍ لِلنَّوْعِيَّةِ، أَيْ بِأَيِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ."[٦]

ولعل ما تقدم يكون قد أبان عن طبيعة العلاقة بين النبي ﷺ والقرآن االكريم، من خلال التأكيد على أن هذا القرآن وحي الله الذي أوحاه إليه، وأنه من عند الله وليس من عند نفسه، وأنه متبع لهذا الوحي لا مبتدع فيه، وأن هذا القرآن هو سر هدايته، كما أن الإيمان به يدعوه إلى الإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله -تعالى-.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٣٩٦) أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٢٧)

(٣) التفسير المظهري (٨/ ٣١٤)

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٢)

(٥) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٣٤)

(٦) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٢)

ثانيا: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالدين

تعددت آيات القرآن الكريم التي تكلم فيها النبي ﷺ عن علاقته بالدين، ومنها قوله تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام : ١٦١]، وقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس : ١٠٤]، وقوله تعالى: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) [الزمر : ١١]، وقوله تعالى: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي) [الزمر : ١٤]، وقوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : ٦]

المتأمل في هذه الآيات يلاحظ مدى قوة العلاقة بينه وبين هذا الدين، وتجلى ذلك من خلال عدة محاور أبرزها: الهداية الربانية له إلى هذا الدين، وإخلاص هذا الدين لله، وشدة تمسكه بهذا الدين، ودفاعه عن هذا الدين ضد محاولات التشكيك، وفيما يلي تفصيل ذلك.

١- الهداية الربانية له إلى هذا الدين

من مظاهر علاقة النبي ﷺ بدينه في كلامه عن نفسه من القرآن الكريم بيانه للهداية الربانية له إلى هذا الدين، وأنه الصراط المستقيم، وأنه دين القيَم، وأنه امتداد لملة إبراهيم -عليه السلام- قال تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام : ١٦١]

"هداني ربي الذي خلقني، وربَّني وقام على كل ما أقوم عليه، فهو القوام على كل نفس، والقائم على كل شيء، فوصف الربوبية في هذا المقام للدلالة على أن الهداية منسوبة إلى الخالق المكوِّن، فهي هداية حق لَا ضلال فيها، ولا أوهام

ولا أهواء عند الله سبحانه وتعالى، وقد أكد أن الهداية من رب الوجود بـــ [إن]، والهداية كانت إلى دين اتصف بأمور ثلاثة.

أولها: أنه صراط مستقيم، أي طريق مستقيم موصل إلى الحق الذي لا ريب فيه من غير التواء ولا اعوجاج، فليس فيه تعقيد بل إنه الفطرة المستقيية، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الوصف الثاني: قوله تعالى: (دِينًا قِيَمًا) أي حال كونه دينا صحيحا، قِيَمًا و [قيم] مصدر [قوم] وزن فعل، كـــ [عوج] وهو نقيضه، وقرئ [قَيِّمًا] أي هو فـــي ذاته قيِّم بلغ أعلى المنزلة في الأديان، والقراءتان متلاقيتان فـــي المعنـــى وفـــي القراءة الأولى كان المصدر وصفا، وذلك في معنى المبالغة في أنه قـــيم وقـــويم، كقولك: فلان عَدْل.

الوصف الثالث: وهو شرف إضافي، فالوصـــفان الأولان ذاتيـــان؛ لأنهمـــا وصفان حقيقيان لأنهما مشتقان من ذات الدين، وذلك الوصف هو قوله –تعالى–: (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) وذكر هذا الوصف ليبين للعرب الذين كانوا يتفاخرون بنسبهم إلى إبراهيم، وبأنه أبو العرب، ويدعون أنهم على ملـــة إبـــراهيم مـــع عبـــادتهم الأوثان، فالنبي ﷺ يبين لهم بأنه هو الذي على ملة إبراهيم، وليسوا هم على ملته في شيء.

وهنا وصف ذاتي لهذا الدين جاء في ثنايا ذلك القول. وهو قوله تعـــالى: (حَنِيفًا) أي غير منحرف إلى باطل، بل هو مائل إلى الحق متجه إليه، فهو مستقيم متجه إلى الحق فحنيفا صفة للدين.

ثم بين – سبحانه– ردًّا علـــى وثنيـــة المشـــركين، فقـــال: (وَمَـــا كَـــانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي ليس لكم أن تفاخروا باتباعكم إبـــراهيم، فمـــا كـــان إبـــراهيم من المشركين، ما كان إبراهيم أبوكم وأبو الأنبيـــاء ممـــن دخـــل فـــي صـــفوف

المشركين، بل أوَّابًا مؤمنا. وهذا كقوله تعالى: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل : ١٢٣]

وقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [النحل : ١٢٠-١٢١].

ولقد كانت ملة إبراهيم عليه السلام سمحة لَا ضيق فيها، ودين محمد – عليه الصلاة والسلام– دين سمح لَا حرج فيه. ولقد قال تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس) [الحج : ٧٨]."[١]

"وتصديرُ الجملة بحرفِ التَّحقيق لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ، مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لمزيد تشريفه، أي قل لأولئك المفرقين أرشدني ربي بالوحي وبما نصب في الآفاق والأنفسِ من الآيات التكوينية (إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ) موصل إلى الحق"[٢]

"وَافْتُتِحَ الْخَبَرُ بِحَرْفِ التَّأْكِيدِ لِأَنَّ الْخِطَابَ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ.

وَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ لِلِاعْتِزَازِ بمربوبية الرّسول ﷺ لِلَّهِ –تَعَالَى– وَتَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ أَرْبَابُهُمْ، وَلَوْ وَحَّدُوا الرَّبَّ الْحَقِيقَ بِالْعِبَادَةِ لَهَدَاهُمْ."[٣]

"والرب المالك، ولفظه مصدر من قولك ربه يربه، وإنما هو مثل عدل ورضى في أنه مصدر وصف به، وأصله ذو الرب، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فقيل الرب."[٤]

---

(١) زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٦٠-٢٧٦٢)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٠٦)

(٣) التحرير والتنوير (٨-أ/ ١٩٨)

(٤) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٦٩)

"وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهِدَايَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِاللَّهِ."(١)

"الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصا إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام."(٢)

"وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ أَقْرَبُ الطُّرُق الْمُوَصِّلَةِ إِلَى السَّعَادَةِ الَّتِي شُرِعَ لَهَا الدِّينُ مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ وَلَا تَأْخِيرٍ."(٣)

"لِأَنَّهُ لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً) [الفتح : ٢] وَهُوَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى طَلَبِهِ مِنْهُ -تَعَالَى- فِي مُنَاجَاتِكُمْ إِيَّاهُ: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) [الفاتحة : ٦]

(دِينًا قِيَمًا) أَيْ إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يَصْلُحُ وَيَقُومُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ: فَقَوْلُهُ: (دِينًا) بَدَلٌ مِنْ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِاعْتِبَارِ الْمَحَلِّ وَ (قِيَمًا) صِفَةٌ لَهُ."(٤)

"وَالْقَيِّمُ مَا يَقُومُ وَيَثْبُتُ بِهِ الْأَمْرُ الْمَطْلُوبُ حَتَّى لَا يَفُوتَ صَاحِبَهُ."(٥)

" و«قيماً» مأخوذة من «القيمة» أو من «القيام» على الأمر، وقام على الأمر أي باشره مباشرة من يصلحه، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم، وهو قائم عليهم أيضاً"(٦)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٠)

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي (ص: ٢٨٢) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (١٣٧٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٤٣)

(٤) تفسير المنار (٨/ ٢١١)

(٥) تفسير المنار (٨/ ٢٤٣)

(٦) تفسير الشعراوي (٧/ ٤٠١٩)

٢- إخلاص هذا الدين لله

من مظاهر علاقة النبي ﷺ بدينه في كلامه عن نفسه من القرآن الكريم كلامه عن إخلاص هذا الدين لله، فكما أن الله هو الذي هداه إلى هذا الدين، فهو من ثم يخلص هذا الدين لله، قال تعالى: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) [الزمر:١١]، وقال تعالى: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي) [الزمر:١٤]

"ومعنى إخلاص الدِّينِ ههنا عبادة الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"(١)

وقد جاءت الآيتان في سياق واجد: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الزمر: ١١-١٥]

"قول – تعالى ذكره– لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد لمشركي قومك: إن الله أمرني أن أعبده مفردا له الطاعة، دون كلّ ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) يقول: وأمرني ربي جل ثناؤه بذلك، لأن أكون بفعل ذلك أوَّل من أسلم منكم، فخضع له بالتوحيد، وأخلص له العبادة، وبريء من كل ما دونه من الآلهة. وقوله تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) : يقول –تعالى ذكره–: قال يا محمد لهم إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته، مخلصا له الطاعة، ومفرده بالربوبية (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يعني عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هوله.

قل يا محمد لمشركي قومك: الله أعبد مخلصا، مفردا له طاعتي وعبادتي، لا أجعل له في ذلك شريكا، ولكني أفرده بالألوهة، وأبرأ مما سواه من الأنداد

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٣٤٤)

والآلهة، فاعبدوا أنتم أيها القوم ما شئتم من الأوثان والأصنام، وغير ذلك مما تعبدون من سائر خلقه، فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربكم."[١]

"يحتمل أن يكون قال هذا؛ لما أن أهل مكة كانوا يدعون رسول اللَّه ﷺ إلى دينهم ودين آبائهم، وكانوا يطمعون عوده إليهم، فقال رسول اللَّه ﷺ : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) ذكر هاهنا أنه أمر أن يعبد اللَّه مخلصًا له الدِّين، وقال في آية أخرى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [الأنعام : ٥٦]، أخبر أنه لو اتبع أهواءهم فيما هم فيه يضل وما كان من المهتدين، ذكر في هذه النهي وترك اتباعه أهواءهم، ولم يذكر الأمر فيها بعبادة اللَّه – تعالى– مخلصًا له الدِّين.أو أن يقول: إني إذا أمرتكم بعبادة اللَّه أمرت أنا أيضًا في نفسي أن أعبده مخلصًا، لست أنا كمن يأمر غيره شيئًا ولا يأتمر بنفسه، أو هو غير مأمور بذلك وهو ما قال: (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ).

أو يقول: لست أنا كالملوك يأمرون أتباعهم بأشياء ويستعملونهم في أمورهم ولا يستعملون في ذلك أنفسهم، واللَّه أعلم."[٢]

"وقوله: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ).

إنه يخرج هذا الحرف منه مخرج التهدد لهم والتوعد، يقول: أما أنا فإنما أعبد الله الحق وله أخلص ديني، فاعبدوا أنتم ما شئتم فإنه يجزيكم جزاء عبادتكم، كقوله تعالى: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) [فصلت : ٤٠] وذلك معروف في كلام الناس، يقول الرجل: اعمل ما شئت أو قل ما شئت فإن لك الجزاء كما تعمل؛ على الوعيد، فعلى ذلك قوله –عَزَّ وَجَلَّ–: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) واللَّه أعلم.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٢٧٠-٢٧١)

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٦٦٧)

ويحتمل وجهًا آخر لا على الوعيد، ولكن يقول: قد بينت لكم وأوضحت السبيلين جميعًا بالآيات والحجج: سبيل النجاة الذي إذا سلكتموه نجوتم، وهو سبيل اللَّه، وسبيل الهلاك الذي إذا سلكتموه هلكتم، وهو سبيل الشيطان، فإن أردتم النجاة فاسلكوا سبيل كذا، وإن أردتم سبيل الهلاك فاسلكوا سبيل كذا، واللَّه أعلم."(١)

٣- شدة تمسكه بهذا الدين

من مظاهر علاقته بدينه في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم بيان شدة تمسكه بهذا الدين، يظهر هذا جليا في قوله للكافرين: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : ٦]

"يقول – تعالى ذكره – : لكم دينكم فلا تتركونه أبدا، لأنه قد ختم عليكم، وقضي أن لا تنفكوا عنه، وأنكم تموتون عليه، ولي دين الذي أنا عليه، لا أتركه أبدا، لأنه قد مضى في سابق علم الله أني لا أنتقل عنه إلى غيره."(٢)

"يعني: قد أكملت عليكم الحجة، فليس عليّ أن أجبركم على الإسلامن فاثبتوا على دينكم حتى تروا ماذا يستقبلكم غداً، وأنا أثبت على ديني الذي أكرمني الله –تعالى– به، ولا أرجع إلى دينكم أبداً."(٣)

"والمعنى: أنى نبىّ مبعوث إليكم، لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعوني، فدعوني كفافا ولا تدعوني إلى الشرك."(٤)

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٦٦٧-٦٦٨)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢٤/ ٦٦٢)

(٣) بحر العلوم = تفسير السمرقندي (٣/ ٦٢٩) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٥هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ على محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود والدكتور زكريا عبد المجيد النوبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

(٤) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨٠٩)

"كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنِّي قَدْ بَالَغْتُ فِي تَحْذِيرِكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْقَبِيحِ، وَمَا قَصَّرْتُ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا قَوْلِي، فَاتْرُكُونِي سَوَاءً بِسَوَاءٍ."(١)

"فِيهِ مَعْنَى التَّهْدِيدِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) [القصص: ٥٥/الشورى : ١٥] أَيْ إِنْ رَضِيتُمْ بِدِينِكُمْ، فَقَدْ رَضِينَا بِدِينِنَا."(٢)

"هو فصل الخطاب، ومقطع الأمر فيما بين النبيّ، وهؤلاء الكافرين.. إن لهم دينهم الذي يدينون به ويحاسبون عليه، وهو له دينه الذي يدين به، ويلقى ربه عليه."(٣)

"وَقَدْ أُرْسِلَ هَذَا الْكَلَامُ إِرْسَالَ الْمَثَلِ وَهُوَ أَجْمَعُ وَأَوْجَزُ مِنْ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ(٤):

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا *** عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ"(٥)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٣٢)

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٦٩٨)

(٤) البيت من المنسرح، ذُكر في جمهرة أشعار العرب مرتين، الأولى في (ص: ١٣) ونسبه إلى الأنصاري، والثانية في (ص:٥٣١) ونسبه إلى عمرو بن امرئ القيس. جمهرة أشعار العرب ، أبوزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ. وفي البيان والتبيين (٣/ ٦٩) منسوب إلى عمرو بن امرئ القيس، البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ. وفي معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ١٨٩) نسبه إلى قيس بن الخطيم، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي (٩٦٣هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت. بدون تاريخ. وفي خزانة الأدب (٤/ ٢٧٥) منسوب إلى عمرو بن امرئ القيس، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧ م. وقال محقق ديوان قيس بن الخطيم: الصحيح أن البيت لعمرو بن امرئ القيس، ديوان قيس بن الخطيم (ص:١١٥) أبو يزيد قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (٢ ق.هـ) تحقيق: الدكتور ناصر الدين الأسد، دار صادر– بيروت، ١٩٦٧م.

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٤)

٤- دفاعه عن هذا الدين ضد محاولات التشكيك

من مظاهر علاقته بدينه في كلامه عن نفسه دفاعه عن هذا الدين ضد محاولات التشكيك، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس : ١٠٤]

"إن كنتم في شك، أيها الناس، من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله: فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئًا، فتشكُّوا في صحته.

وهذا تعريض ولحنٌ[١] من الكلام لطيفٌ.

وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئًا ولا تضر ولا تنفع. فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرُّهم إن شاء. وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة. وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح.

وقوله: (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم، (وأمرت أن أكون من المؤمنين) يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدّقين بما جاءني من عنده. "[٢]

---

(١) المراد باللحن هنا: التعريض والإماء دون التصريح، وذلك بأن تعدل الكلام عن جهته، فيكون أجود له وأشد إثارة لفطنة سامعه.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (١٥/ ٢١٧-٢١٨)

"سفههم بتركهم إجابتهم بالشك ودعائهم إياه بالشك إلى دينهم، لأن الشك يوجب الوقف في الأشياء، ولا يوجب الدعاء إليه، إنما يوجب الدعاء إليه بطلان غيره لا الشك، هذا -واللَّه أعلم- محتمل، وهو يخرج على وجهين أيضًا: أحدهما: على الإضمار، والآخر على المنابذة.

والإضمار: إن كنتم في شك من ديني الذي أدين به وأدعوكم إليه فإني لا أشك فيه، هذا وجه الإضمار، ووجه المنابذة: يقول إن كنتم في شك مما أعبد وأدين به، فلا تعبدون ذلك ولا تدينون به، فأنا لا أعبد ما تعبدون ولا أدين ما تدينون؛ وهو كقوله: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [الكافرون : ٦].

وقوله -عَزَّ وَجَلَّ-: (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) والتوفي هو النهاية والغاية، في الإضرار، وما تعبدون من الأصنام دونه لا يملكون توفيكم ولا الإضرار بكم إن لم تعبدوها، يذكر سفههم ويلزمهم الحجة أن الذي يتوفاهم هو المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها.

وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) يشبه أن يكون قوله: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) من المرسلين؛ كقوله: (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) [الصافات : ١٢٢]، وقال: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) [الصافات : ٨١]، فعلى ذلك هذا.

ويحتمل الإيمان نفسه على ما نهي أن يكون من المشركين أو الشاكين؛ فعلى ذلك أمر أن يكون من المؤمنين المخلصين له المسلمين أنفسهم، واللَّه أعلم."[1]

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٩١)

"وَجَوَابُ (إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ) قَوْلُهُ: فَلَا أَعْبُدُ، وَالتَّقْدِيرُ: فَأَنَا لَا أَعْبُدُ، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمَنْفِيَّ بِلَا إِذَا وَقَعَ جَوَابًا انْجَزَمَ، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْفَاءُ عُلِمَ أَنَّهُ عَلَى إِضْمَارِ الْمُبْتَدَأِ."(١)

"وقوله تعالى: (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ ... الآية) مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام."(٢)

"وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم، ويترك لهم الحكم، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها، فلا بد أن يلتجئ الإنسان إلى الإيمان."(٣)

من كل ما تقدم يتبين لنا مدى الاعتزاز البالغ للنبي ﷺ بدينه، من خلال بيان الهداية الربانية له إلى هذا الدين، وأنه الصراط المستقيم، ومن خلال إخلاص هذا الدين لله، وشدة تمسكه به، ودفاعه عنه.

ولعلنا بهذا نكون قد اكتشفنا شيئا من ملامح العلاقة بين النبي ﷺ والقرآن االكريم من جهة، وملامح العلاقة بين النبي ﷺ ودينه من جهة أخرى، كما صورها كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم.

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٦/ ١١٢)

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١٤٦)

(٣) تفسير الشعراوي (١٠/ ٦٢٤٦)

الفصل الثالث

قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن صفاته وسماته الشخصية

تتناول القراءة التحليلية في هذا الفصل كلام النبي ﷺ عن صفاته وسماته الشخصية التي جاءت في إطار كلامه عن نفسه من القرآن الكريم، وقد تنوعت هذه الصفات وتعددت تلك السمات، ومن أبرزها كلامه عن كونه أول المسلمين وأول العابدين، وكلامه عن كونه رسولا، وكلامه عن كونه بشرا، وكلامه عن كونه نذيرا و بشيرا، وفي ما يلي قراءة تحليلية في كلامه عن هذه السمات.

أولا: كلامه عن كونه أول المسلمين وأول العابدين

من الموضوعات التي جاءت في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم كلامه عن أوليته، وذلك من خلال كلامه عن أوليته في الإسلام (قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) [الأنعام : ١٤] (وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام : ١٦٣]، (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) [الزمر : ١٢] ومن خلال كلامه عن أوليته في العبادة (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) [الزخرف : ٨١]

وعند البحث في كتب التفسير عن مفهوم أوليته في الإسلام تظهر آراء متعددة في بيان معنى تلك الأولية، وفي ما يلي عرض أبرز تلك الآراء:

قال مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ): "(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) يعني المخلصين من أَهْل مكة"[١]

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٦٠٠) أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (١٥٠هـ) تحقيق: د. عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

و"عَنْ قَتَادَةَ (١١٨ هـ) قَالَ: أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ"(١)

وقال الطبري (٣١٠هـ) :"وأنا أوّل من أقرَّ وأذْعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك."(٢)

وقال الماتريدي (٣٣٣هـ): "يحتمل قوله: (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)، أي: وأنا أول من خضع وأسلم بالذي أمرت أن أبلغ؛ لأنه أمر بتبليغ ما أنزل إليه، فيقول: أنا أول من أسلم بالذي أمرت بالتبليغ.

ويحتمل: أن يكون لا على توقيت الإسلام؛ ولكن على سرعة الإجابة والطاعة له كقوله: (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)[الزخرف : ٤٨] هو على الوصف بغاية العظم، ليس على أن بعضها أكبر وأعظم وبعضها أصغر؛ ولكن كلها أعظم وأكبر؛ فعلى ذلك هذا ليس على وقت الإسلام، ولكن لسرعة الإجابة، والطاعة له، والله أعلم."(٣)

وقال السمرقندي (٣٧٥هـ): "وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ من أهل مكة. ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق."(٤)

يعني الميثاق الذي أخذه الله على النبيين المذكور في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران : ٨١]

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٣) أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (٢١١هـ) دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (١٢/ ٢٨٣)

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٣٩-٣٤٠)

(٤) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٥٢٨)

وقال القرطبي (٦٧١هـ): "فإن قيل: أو ليس إِبْرَاهِيمُ وَالنَّبِيُّونَ قَبْلَهُ؟ قُلْنَا عَنْهُ ثَلَاثَةَ أَجْوِبَةٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَوَّلُ الْخَلْقِ أَجْمَعُ مَعْنًى، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ قَوْلِهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ).[١] وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ (نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ)[٢]

الثَّانِي: أَنَّهُ أَوَّلُهُمْ لِكَوْنِهِ مُقَدَّمًا فِي الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ) [الأحزاب:٧] قَالَ قَتَادَةَ (١١٨هـ): إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ)[٣] فَلِذَلِكَ وَقَعَ ذِكْرُهُ هُنَا مُقَدَّمًا قَبْلَ نُوحٍ وَغَيْرِهِ.

الثالث: أول المسلمين من أهل ملته، قال ابْنُ الْعَرَبِيِّ (٥٤٣ هـ) وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ."[٤]

---

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم (٢/٥٨٥) أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٥٨٦)

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ" في مسند الشاميين (٤/٣٤-٣٥) أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م، وفي الفوائد (٢/١٥) أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي الدمشقي (٤١٤هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(٤) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٥٥)

وقال الألوسي (١٢٧٠هـ): "قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ نفسه لربه -عز شأنه- والمراد بالأمر بذلك الأمر الكوني أي قل إني قيل لي: كن أول من أسلم فكنت، وذلك قبل ظهور هذه التعينات وإليه الإشارة بما شاع من قوله ﷺ: (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين)[١] فأول روح ركضت في ميدان الخضوع والانقياد والمحبة روح نبينا ﷺ."[٢]

وقال عبد الكريم الخطيب (١٤٢٩هـ): "والسؤال هنا: هل كان النبي- صلوات الله وسلامه عليه- أول المسلمين عامة؟ أي: أول الإنسانية كلها إسلاما. أم هو أول المسلمين من أمة محمد وحدها؟.

والجواب على هذا- والله أعلم- أنّه- صلى الله عليه وسلم- أول المسلمين في أمته، إذ أن الإسلام هو سمة الرسالة المحمدية وحدها، من بين الرسالات السماوية كلها، وأن الإسلام وإن كان هو دين الله، الذي جاءت به رسالاته كلها، إلا أنه لم يأخذ هذا الوصف إلا في رسالة محمد، التي كانت مجتمع الرسالات، وخاتمتها، وأن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- قد دعوا الله بأن يجعل منهما أمة مسلمة، هي أمة محمد -عليه الصلاة والسلام-

وفى هذا يقول الله على لسانيهما: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) [البقرة : ١٢٨]، ويقول سبحانه: (مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) [الحج : ٧٨]"[٣]

---

(١) قال ابن تيمية: "وَأَمَّا قَوْلُهُ: (كُنْت نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ) فَلَا أَصْلَ لَهُ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ بِهَذَا اللَّفْظِ." مجموع الفتاوى (٢/ ٢٣٨) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ١٣٢)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٣٥٧)

قوله: (إن الإسلام هو سمة الرسالة المحمدية وحدها، من بين الرسالات السماوية كلها) فيه مجافاة لقول الله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ) [آل عمران : ١٩]، ولقوله تعالى على لسان نوح –عليه السلام–: (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [يونس : ٧٢]، ولقوله على لسان إبراهيم وإسماعيل: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) [البقرة : ١٢٨]، ولقوله عن قرية لوط –عليه السلام–: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) [الذاريات : ٣٦]، ولقوله على لسان يعقوب: (يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [البقرة : ١٣٢]، ولقوله على لسان أبناء يعقوب: (قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [البقرة : ١٣٣]، ولقوله تعالى عن موسى –عليه السلام–: (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) [يونس : ٨٤]، ولقوله عن فرعون: (قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [يونس : ٩٠]، ولقوله عن سليمان –عليه السلام–: (قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) [النمل : ٣٨]، وكذلك لقوله على سليمان –عليه السلام–: (فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) [النمل : ٤٢]، ولقوله على لسان الحواريين: (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران : ٥٢]، ولقوله على لسان الحواريين –أيضا–: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) [المائدة : ١١١]

كل هذه الآيات تؤكد أن الإسلام هو رسالة جميع الأنبياء، وليس سمة الرسالة المحمدية وحدها، من بين الرسالات السماوية كلها، كما زعم عبد الكريم

الخطيب، لذا يضعف ما بناه على هذا الدليل من أن المراد بأول المسلمين انه- صلى الله عليه وسلم- أول المسلمين فى أمته.

قال الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ) : "وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ فِي خَاصَّتِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [البقرة : ١٣٢] وَنَظَائِرِهَا كَثِيرَةٌ، كَانَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ -مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَفْضَلُ الرُّسُلِ لِشُمُولِ لَفْظِ الْمُسْلِمِينَ للرسل السَّابِقين."(١)

وقال الشيخ الشعراوي (١٤١٨هـ) : " والإسلام هو دين الرسل جميعا، وكلهم قد آمن به(٢) إذن فالإسلام دين شائع، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ- فقط"(٣)

والذي أطمئن إليه أن أول المسلمين هنا عامة، أي: أول الإنسانية كلها إسلاما، فأولية إسلامه مطلقة، وليست مخصوصة بهذه الأمة، وليس ثمة ما يمنع ذلك، إذ أن الأولية -في كل الآيات التي وردت فيها- أولية مطلقة غير مقيدة، على الرغم من تعدد تلك الآيات وتنوع أساليبها، فليس فيها ما يشير إلى تقييد الأولية بالأمة، ومعلوم من الآيات السابق ذكرها أن كل الأنبياء إنما جاءوا بدين الإسلام، وقد عُلم من الحديث السابق ومن غيره(٤) سبْقه في الخلق للأنبياء، ومنهم آدم، كما أن الله -سبحانه وتعالى- وهو الأول، هو الذي أمره أن يكون كذلك: (قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) [الأنعام : ١٤]، (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) [الزمر : ١٢] وأمره أن يقول ذلك: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٨)

(٢) تفسير الشعراوي (٣/ ١٣٥٥)

(٣) تفسير الشعراوي (٣/ ١٣٥٦)

(٤) عَنْ مَيْسَرَةَ الْفَجْرِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى كُتِبْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: "وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ" مسند الإمام أحمد بن حنبل (٣٤/ ٢٠٢)

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام : ١٦٢-١٦٣]

وهذا هو الفارق بين أوليته هنا وأولية موسى في قوله تعالى: (فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [الأعراف : ١٤٣] وأولية السحرة في قوله تعالى: (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء : ٥١]

فأولية موسى من قول موسى، وأولية السحرة من قول السحرة، أما أوليته فليست من قوله، وإنما أُمر بقولها كما أُمر بها.

وكما تكلم عن أوليته في الإسلام تكلم عن أوليته في العبادة، قال تعال: (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) [الزخرف : ٨١]

"يعني إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ في قولكم وبزعمكم، فأنا أول الموحدين المؤمنين بالله في تكذيبكم والجاحدين لما قلتم من إنّ له ولدا. قاله مجاهد.

وقال ابن عباس: يعني ما كان للرّحمن ولد وأنا أول الشاهدين له بذلك والعابدين له، جعل بمعنى النفي والجحد، يعني ما كان وما ينبغي له ولد. ثمّ ابتداء فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ.

وقال السدي: معناه، قُلْ: إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أول من عبده بأنّ له ولد، ولكن لا ولد له، وقال قوم من أهل المعاني: معناه، قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ. فَأَنَا أَوَّلُ الآنفين من عبادته.

ويحتمل أن يكون معناه ما كان للرحمن ولد. ثم قال: فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ الآنفين من هذا القول المنكرين إنّ له ولدا. يقال عبد إذا أنف وغضب عبدا."[١]

"هو بيان للموقف الذي يتخذه النبي من دعوى المشركين بأن لله ولدا، وهم الملائكة الذين نسبوهم إلى الله، ثم عبدوهم من دونه..

فلو أنه سلّم بهذا الأمر جدلا، وكان للرحمن ولد كما يزعمون- فهذا لا يجعل للولد مكانا متقدما على الوالد، حتى يؤثر بالعبادة من دونه.. فالوالد مقدّم على الولد رتبة وزمانا.. فهو بهذا معبود قبل أن يوجد الولد.. فإذا وجد الولد بعد هذا، فليس له أن يزيل الوالد عن مكانه! وعلى هذا، فإنه لو سلّم للمشركين بما يقولونه من أن لله ولدا، فإن هذا لا يعطيهم حجّة على عبادة الولد دون الوالد.. ولهذا كان أن واجههم النبي بما ينبغى أن يكون عليه الأمر- على فرض التسليم بدعواهم الباطلة- وهو أن النبىّ أول العابدين لله، دون التفات إلى هذا الولد على فرض التسليم به..!"[٢]

من هذا نتبين أن الأولية هنا لما جاءت في سياق الشرط تعدد مفهومها، وعلى كل فالأولية هنا شاهدة للأولية هناك، مما يزيدنا يقينا بما ذكر من قبل عن ثبوت أولية النبي ﷺ للمسلمين عامة أي أول الإنسانية كلها إسلاما.

ولما كان أول المسلمين فهو من المسلمين، لذا قال تعالى: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [يونس : ٧٢ ، النمل : ٩١] وقال تعالى: (وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [غافر : ٦٦]، ولا تعارض بين أن يكون أولهم وأن يكون منهم.

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن = تفسير الثعلبي (٨/ ٣٤٦) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (٤٢٧هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م.

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ١٧٠)

ثانيا: كلامه عن كونه رسولا

لما جاء النبي ﷺ برسالة السماء كذبه المكذبون وأنكر عليه المنكرون، فأمره الله أن يتكلم عن نفسه بنفسه مخاطبا جميع الناس إنه رسول الله الذي أرسله إلى الناس كافة قطعا للطريق على هؤلاء المكذبين، وإقامة للحجة على أولئك المنكرين.

ومن تلك الآيات التي تكلم فيها النبي ﷺ عن رسالته قوله تعالى:(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الأعراف : ١٥٨]

"(إنّي رسول الله إليكم جميعًا) لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم."(١)

"وإذا لم تكن الرسالة المحمدية رسالة الإنسانية كلها، لم يكن ثمّة معنى لأن تكون خاتمة الرسالات، وأن يكون رسولها خاتم الرسل ... ذلك، لأنه- صلوات الله وسلامه عليه- جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدها، وحين أراد الله – سبحانه وتعالى- لها أن تستقلّ بوجودها، وأن تستقيم على الطريق الذي يمليه عليها تفكيرها.

إن الإنسانية- وقت البعثة المحمدية- كانت قد جاوزت طور الصبا، وبلغت أشدها ورشدها، وأصبحت بهذا جديرة بأن تستقل بنفسها، وأن تستهدى بما أودع الله – تعالى- فيها من عقل، وبما حملت إليها السماء من وصايا."(٢)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٣/ ١٧٠)

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨١٤)

"فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: (إني رسول الله إليكم)؟ قلت: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه."(١)

"لم يقل محمدٌ: وآمنوا بي؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس، فالإيمان لا بذاتك وشخصك، ولكن لأنك رسول الله، فجاء بالحيثية الأصلية (فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ)، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد."(٢)

"ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ :

الاصْطفاء الأول: أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة: فهذه منزلة عالية.

والاصْطفاء الثاني: أنه رسولٌ للناس كَافَّة؛ وهذه منزلة عالية أخرى؛ لأنها تستوعب المكان والزمان، والألسنة والأقوام."(٣)

ومنها قوله تعالى:(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) [الرعد : ٤٣]

"كانوا يقولون كذلك له فأمره أن يقول لهم قوله تعالى: (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) إني نبي رسول اللَّه إليكم بالآيات التي آتي بها، أو كان قال لهم ذلك؛ لما بالغ في الحجاج والبراهين في إثبات الرسالة والنبوة؛ فلم يقبلوا ذلك فأيس من تصديقهم؛ فعند ذلك قال:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١٦٧)

(٢) تفسير الشعراوي (٧/ ٤٣٨٧)

(٣) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٤٢٤-٧٤٢٥)

قوله تعالى: (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)."[١]

"(كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً) لما أظهر من الأدلة على رسالتي (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ) والذي عنده علم القرآن، وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا؛ لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم."[٢]

"وَلَمَّا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ الْمَحْكِيَّةُ هُنَا صَرِيحَةً لَا مُوَارَبَةَ فِيهَا أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ بِجَوَابٍ لَا جِدَالَ فِيهِ وَهُوَ تَحْكِيمُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وَقَدْ أَمر الرَّسُول-عَلَيْهِ الصَّلَاة والسّلام- بِأَنْ يُجِيبَهُمْ جَوَابَ الْوَاثِقِ بِصِدْقِهِ الْمُسْتَشْهِدِ عَلَى ذَلِكَ بِشَهَادَةِ الصِّدْقِ مِنْ إِشْهَادِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَإِشْهَادِ الْعَالِمِينَ بِالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الشَّهَادَة للرسول-عَلَيْهِ الصَّلَاة والسّلام- بِالصِّدْقِ شَهَادَةً عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ جُعِلَتِ الشَّهَادَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ."[٣]

"فهم يسلمون بأن لله رسالة، ولكن لست من أصحابها، فالله لم يرسلك، وهم بهذا ينكرون رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم -، وينكرون أن يكون له معجزة دالة على هذه الرسالة، ويريدون آيات أخرى غير القرآن، إذ لَا يعدون القرآن آية، وما كان للنبي أن يأخذ كلامهم أخذ من يعتبره، وقد قام الدليل عليه بالتحدي، وإدراك أهل الذكر منهم ما فيه من نسق، ووثيق نظم، ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)، أي كفا الله شهيدا بيني وبينكم، فهو الحق وشهادته الحق، وليست شهادته كلاما يردد، ولكن شهادته معجزة تفحم، وقد جاءت الخوارق تترى بشهادة الحق في كل ما ترون

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٥٧)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٣٦)

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٥)

من حياته، وما أحاط بها، وما دبرتم وقد رد تدبيركم في نحوركم، وقوله تعالى: (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) فيه تهديد لهم بما يكون لإنكارهم من عواقب وخيمة عليهم تنصر أهل الحق."[١]

ومنها قوله تعالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً) [الإسراء :٩٠-٩٣]

"و(سُبْحانَ رَبِّي) تعجب من اقتراحاتهم عليه، هَلْ كُنْتُ إِلَّا رسولا كسائر الرسل بَشَراً مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ، وإنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها عليّ."[٢]

"أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول، عليّ أن أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم. وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إليّ، وذلك ما تحديتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح، كما أمرني ربي، ولا أقترح عليه -سبحانه- ما لا يجوز أن يكون، أو ما يكون فعله عبثا، لخلوّه عن الفائدة."[٣]

"قال النبي ﷺ : (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) كسائر الرسل -عليهم السلام- وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله -تعالى- على أيديهم، حسبما تقتضيه الحكمة، من غير تفويض إليهم فيه، ولا تحكم منهم عليه -سبحانه-، و(بَشَراً) خبر كان و(رَسُولًا) صفته، وهو معتمد الكلام، وكونه بشرا توطئة لذلك، ردا لما

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٣٩٧٤)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٩٤)

(٣) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ٥١٣-٥١٤)

أنكروه من جواز كون الرسول بشرا، ودلالة على أن الرسل – عليهم السلام– من قبل كانوا كذلك، ولهذا قال الزمخشري: هل كنت إلا رسولا كسائر الرسل بشرا مثلهم، وزعم بعض: أن ذكر بَشَراً ليس للتوطئة، فإن طلب القوم منه –عليه الصلاة والسلام– ما طلبوه يحتمل أن يكون طلب أن يأتي به بقدرة نفسه ﷺ، ويحتمل أن يكون طلب أن يأتي به بقدرة الله –تعالى–، فذكر (بَشَراً) لنفي أن يأتي بذلك بقدرة نفسه، كأنه قال: هل كنت إلا بشرا، والبشر لا قدرة له على الإتيان بذلك. وذكر رسولا لنفي أن يأتي به بقدرة الله –تعالى–، كأنه قيل هل كنت إلا رسولا والرسول لا يتحكم على ربه –سبحانه–."[1]

"وَالْمَعْنَى: أَنِّي رَسُولٌ أُمِرْتُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ إِلَيْكُمْ، وَاللهُ –تَعَالَى– قَدْ أَقَامَ الدَّلَالَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ فِي الرِّسَالَةِ بِإِظْهَارِ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، فَبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ طَلَبُ الزِّيَادَةِ مِنْ بَابِ التَّحَكُّمِ وَذَلِكَ لَيْسَ فِي وُسْعِي، وَلَعَلَّ إِظْهَارَهَا يُوجِبُ مَا يَسُوؤُكُمْ، مِثْلُ أَنَّهَا لَوْ ظَهَرَتْ فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَوْجَبَ الْعِقَابَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا سَمِعُوا الْكُفَّارَ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِهَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى ظُهُورِهَا، فَعَرَفُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ، فَرُبَّمَا كَانَ ظُهُورُهَا يُوجِبُ مَا يَسُوؤُهُمْ."[2]

ومنها قوله تعالى:(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الأحقاف : ٩]

"كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب، فقيل له: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ فآتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨/ ١٦٠-١٦١)
(٢) تفسير المنار (٧/ ١٠٦)

تسألون عنه من المغيبات، فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم."[١]

"البدعُ بمعنى البديعِ كالخِلِّ بمعنى الخليلِ، وهو ما لا مثلَ له، وقرئ بفتحِ الدالِ على أنه صفةٌ كقِيَمٍ وزِيَمٍ، أو جمع مقدر مضاف أيْ ذَا بِدَعٍ، وقد جُوِّزَ ذلكَ في القراءةِ الأُولى أيضاً على أنَّه مصدرٌ، كانُوا يقترحونَ عليهِ آياتٍ عجيبةً ويسألونَهُ عن المُغيباتِ عِناداً ومُكابرةً فأُمَر -عليهِ السَّلامُ- بأنْ يقولَ لهم: ما كنتُ بديعاً من الرسلِ قادراً على ما لم يقدروا حَتَّى آتيكُم بكلِّ ما تقترحونَهُ وأخبركم بكلِّ ما تسألون عنْهُ من الغيُوبِ، فإنَّ مَنْ قبلي من الرسلُ -عليهم الصلاة

والسلام- ما كانُوا يأتونَ إلا بما آتاهُم الله -تعالى- من الآياتِ، ولا يُخبرونَهم إلا بَما أُوحيَ إليهم."[٢]

"دعوة أخرى إلى هؤلاء المشركين، أن يعيدوا النظر في هذا النبي، وفيما يدعوهم إليه.

إنه بشر مثلهم، شأنه في هذا شأن المرسلين من قبله إلى أقوامهم، وهو إنما يبلغ ما يتلقاه من ربه، شأنه في هذا -أيضا- شأن كل رسول قبله، فهو ليس بدعا من الرسل، أي ليس على صورة غريبة، خارجة عما جاء عليه الرسل من قبله، سواء في شخصه، أو في مضمون ما أرسل به، فماذا ينكر القوم منه؟."[٣]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٩٨)

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٧٩)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٢٦٨-٢٦٩)

ثالثا: كلامه عن كونه بشرا

أكد القرآن الكريم على بشرية سيدنا محمد ﷺ في آيات عديدة، كان لكلامه عن نفسه نصيب منها، إثباتا لحقيقة قد تطمس معالمها شدة أنوار نبوته وقوة أضواء رسالته.

من تلك الآيات قوله تعالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً) [الإسراء :٩٠-٩٣]

"هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره."(١)

"و (سُبْحانَ رَبِّي) تعجب من اقتراحاتهم عليه."(٢)

"أَمَرَهُ بِتَنْزِيهِهِ وَتَمْجِيدِهِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أن ينزل ما طَلَبُوا لَفَعَلَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يُنَزِّلُ الْآيَاتِ عَلَى مَا يَقْتَرِحُهُ الْبَشَرُ، وَمَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ وليس ما سألتم من طَوْقِ الْبَشَرِ."(٣)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٧/ ٥٥٤)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٩٤)

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي (٣/ ١٦٢-١٦٣) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (٥١٠هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ.

"والاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، فهو إنكار للوقوع، معناه: ما كنت إلا بشرا أرسلت من عند اللَّه -تعالى-، وكانت صيغة النفي على شكل الاستفهام تقريرا للنفي والإثبات، وانحصار الوصف الكامل للنبي ﷺ بأنه بشر رسول، وليس وصف غير هذا وهو أعلى أوصاف الكمال الإنساني."(١)

"هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً مِنَ الْبَشَرِ، لَا مَلَكًا حَتَّى أَصْعَدَ السَّمَاءَ، رَسُولًا مَأْمُورًا مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ- بِإِبْلَاغِكُمْ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ أَيُّهَا الْمُقْتَرِحُونَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ بَشَرًا قَدَرَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا؟"(٢)

"هو بشر منهم، قبل أن يكون رسولا، وأن كونه رسولا لا يخرجه عن بشريته."(٣)

"وأنه بحكم هذه البشرية ليس مما يحسب عليه أو ينقص من قدره ألّا يأتي بشيء من هذه المقترحات التي اقترحوها عليه، لأنها خارجة عن حدود البشر."(٤)

"فَأَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِصِفَتِي الْبَشَرِيَّةِ ؛ لِأَنَّنِي مِثْلُكُمْ فِيهَا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ -تَعَالَى-."(٥)

"لِأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُخْرِجُ الرَّسُولَ عَنْ طَوْرِ الْبَشَرُ فِي صِفَاتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ كَالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِيجَادَ شَيْءٍ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ فِي صِفَاتِهِمُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْخَالِقِ تَعَالَى."(٦)

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٤٤٥٤)
(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠٧)
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٥٠)
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٥٠)
(٥) تفسير المنار (٧/ ٤٥٦)
(٦) تفسير المنار (٧/ ٣١٩)

ومنها قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) [الكهف : ١١٠].

وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) [فصلت : ٦].

"أمره أن يخبرهم أنه بشر مثلهم، ثم يكون لذلك الأمر وإخباره إياهم أنه بشر مثلهم وجوه من المعنى:

أحدها: أنهم كانوا يسألونه آيات خارجة عن وسع البشر وطوقهم، فأمره أن يخبرهم أنه بشر مثلهم، لا يقدر على ما يسألونه من الآيات التي تخرج عن وسع البشر وطوقهم، وليس لأحد التحكم على اللَّه، والتخير عليه في شيء، إنما ذلك إلى اللَّه إن شاء أنزل وإن شاء لم ينزل، وأنا لا أملك شيئًا من ذلك.

والثاني: ذكر هذا ليعرفوا أنه إذا جاء من الآيات التي لا يحتمل وسع البشر أن يأتوا بمثلها، أنه إنما أتى بذلك من عند اللَّه لا من ذات نفسه؛ إذ علموا أن وسع البشر لا يحتمل ذلك، فلما أتاهم بذلك إنما أتى بها من عند اللَّه وأنه رسول على ما يقول.

والثالث: أمره أن يقول لهم هذا: إنه بشر مثلهم؛ لئلا يحملهم فرط حبِّهم على أن يتخذوه إلهًا ربًّا على ما اتخذ قوم عيسى عيسى إلهًا ربًّا؛ لفرط حبِّهم إياه."[1]

"أَيْ: إِنَّ حَالِي مَقْصُورٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ لَا يَتَخَطَّاهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ لَا يَدَّعِي الْإِحَاطَةَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ امْتَازَ عَنْهُمْ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٢١٦)

سُبْحَانَهُ فَقَالَ: يُوحى إِلَيَّ وَكَفَى بِهَذَا الْوَصْفِ فَارِقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْبَشَرِ."(١)

"وَإِذا كَانَ الرَّسُول بشرا مثل الْقَوْم؛ فَيكون أقرب للألفة وَأدنى لفهم الحجة."(٢)

"فما هو إلّا بشر من البشر، وإنسان من الناس، وعبد من عباد الله، وأنه إذا كان يدعو الناس إلى الله بكلمات الله التي معه، فذلك من فضل الله عليه، وهذه الكلمات التي يدعو بها إنما هى وحي أوحاه الله إليه، لهداية الناس، وخيرهم وسلامتهم."(٣)

"وفى هذا عزاء للناس الذين لم يكن لهم حظ موفور، من هذا الذي مع غيرهم، من ماديات الحياة ومعنوياتها، إذ أنهم–لو عقلوا– لعلموا أنهم شركاء في هذا الذي يرون أنفسهم أنهم حرموا منه وهو البشرية، إنه ملك الإنسانية كلها، يضاف إلى رصيدها، مما هو مرغوب فيه عندها، كما أن ما في بعض الناس من نقص وعيب هو مما يحسب على الإنسانية كلها"(٤)

"فَصِيغَةُ الْقَصْرِ فِي (إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) تُفِيدُ قَصْرًا إِضَافِيًّا، أَيْ: أَنَا مَقْصُورٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ دُونَ التَّصَرُّفِ فِي قُلُوبِ النَّاس. وبيّن ما تَمَيَّزَ بِهِ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الِاحْتِرَاسِ مِنْ أَنْ يَتَلَقَّفُوا قَوْلَهُ: (إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) تَلَقُّفَ مَنْ حَصَلَ عَلَى اعْتِرَافِ خَصْمِهِ بِنُهُوضِ حُجَّتِهِ بِمَا يُثْبِتُ الْفَارِقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٧٥)

(٢) تفسير القرآن = تفسير السمعاني (٢/ ٣٦٢) أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني (٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٧١٩)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٨٦)

مَضْمُونُ جُمْلَةِ (يُوحى إِلَيَّ) وَذَلِكَ لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ إِبْطَالَ زَعْمِهِمُ الْمَشْهُورِ الْمُكَرَّرِ أَنَّ كَوْنَهُ بَشَرًا مَانِعٌ مِنْ إِرْسَالِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَولِهم: (مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) [الْفرْقَان: ٧]، وَنَحْوَهُ مِمَّا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ.

وَمِثْلُ هَذَا الِاحْتِرَاسِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ لِرُسُلِهِمْ: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ . قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ [إِبْرَاهِيم: ١٠- ١١]."[1]

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣٧)

رابعا: كلامه عن كونه نذيرا و بشيرا

في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم جاءت صفتا النذير والبشير معا في بعض الآيات، وتقدمت فيها صفة النذير على البشير، وجاءت صفة النذير منفردة في بعض الآيات، وجاءت بصيغة المنذر في بعضها ، ولم تأت صفة البشير منفردة، وفيما يأتي تفصيل ذلك.

من الآيات التي جاءت صفتا النذير والبشير معا قوله تعالى: (إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف : ١٨٨]

"ما أنا إلا رسولٌ لله أرسلني إليكم، أنذر عقابه مَن عصاه منكم وخالف أمره، وأبشّرَ بثوابه وكرامته من آمن به وأطاعه منكم."(١)

"وَالنَّذِيرُ مُبَالَغَةٌ فِي الْإِنْذَارِ بِالْعِقَابِ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي وَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَالْبَشِيرُ مُبَالَغَةٌ فِي الْبِشَارَةِ بِالثَّوَابِ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي، وَقَوْلُهُ: (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَتَرَكَ ذِكْرَ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ ذِكْرَ إِحْدَاهُمَا، يُفِيدُ ذِكْرَ الْأُخْرَى كَقَوْلِهِ: (سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) [النَّحْل: ٨١] وَالثَّانِي: أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَإِنْ كَانَ نَذِيرًا وَبَشِيرًا لِلْكُلِّ إِلَّا أَنَّ الْمُنْتَفِعَ بِتِلْكَ النِّذَارَةِ وَالْبِشَارَةِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ. فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِالذِّكْرِ."(٢)

"(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم. أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون."(٣)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٣/ ٣٠٣)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٢٦)

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١٨٥)

"وَالظَّاهِرُ تَعَلُّقُهُمَا بِالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ منفعتهما معا وجدواهما لَا يَحْصُلُ إِلَّا لَهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) [يونس : ١٠١]."(١)

"وَإِنَّمَا قَدَّمَ وَصْفَ النَّذِيرِ عَلَى وَصْفِ الْبَشِيرِ، هُنَا: لِأَنَّ الْمَقَامَ خِطَابُ الْمُكَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ، فَالنِّذَارَةُ أَعْلَقُ بِهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ."(٢)

ومنها قوله تعالى: (أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) [هود : ٢]

"ضمير الغائب المجرور لله –تعالى– و [من] لابتداء الغاية، والجار والمجرور في الأصل صفة النكرة فلما قدم عليها صار حالا كما هو المعروف في أمثاله أي إني لكم من جهته –تعالى– نذير أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من عبادة غيره –سبحانه– وبشير أبشركم ثوابه إن آمنتم وتمحضتم في عبادته –عز وجل–."(٣)

"وَاعْلَمْ أَنَّهُ ﷺ مَا بُعِثَ إِلَّا لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَهُوَ الْإِنْذَارُ عَلَى فِعْلِ مَا لَا يَنْبَغِي، وَالْبِشَارَةُ عَلَى فِعْلِ مَا ينبغي."(٤)

"وإذا أطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه، والبشارة في المحبوب، وقدم النذير لأن التحذير من النار هو الأهم."(٥)

"مَضْمُونَ الْبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ هُوَ جَامِعُ عَمَلِ الرَّسُولِ ﷺ فِي رِسَالَتِهِ فَهُوَ بَشِيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ، وَنَذِيرٌ لِمَنْ أَعْرَضَ وَعَصَى."(٦)

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٤٢)
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٩)
(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٦/ ١٩٣-١٩٤)
(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٧/ ٣١٥)
(٥) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١٤٩)
(٦) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٦)

وتعددت الآيات التي جاءت صفة النذير فيها منفردة، فقد جاءت معرفة بالألف واللام في قوله تعالى: (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) [الحجر : ٨٩]

وواضح ما فيها من قصر بتعريف الطرفين.

"إني أنا النذير الذي قد أبان إنذاره لكم من البلاء والعقاب أن ينزل بكم من الله على تماديكم في غيكم."(١)

"فَيَدْخُلُ تَحْتَ كَوْنِهِ نَذِيرًا، كَوْنُهُ مُبَلِّغًا لِجَمِيعِ التَّكَالِيفِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ وَاجِبًا تَرَتَّبَ عَلَى تَرْكِهِ عِقَابٌ، وَكُلَّ مَا كَانَ حَرَامًا تَرَتَّبَ عَلَى فِعْلِهِ عِقَابٌ، فَكَانَ الْإِخْبَارُ بِحُصُولِ هَذَا الْعِقَابِ دَاخِلًا تَحْتَ لَفْظِ النَّذِيرِ، وَيَدْخُلُ تَحْتَهُ أَيْضًا كَوْنُهُ شَارِحًا لِمَرَاتِبِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ أَرْدَفَهُ بِكَوْنِهِ مُبِينًا، وَمَعْنَاهُ كَوْنُهُ آتِيًا فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالْبَيَانَاتِ الشَّافِيَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْوَافِيَةِ."(٢)

"أكد رسول الله – تعالى– بأمر ربه إنذاره بـ [إنَّ]، والتوكيد اللفظي بالضمير المنفصل [أنا]، وبالقصر، فعقد عمله ﷺ على الإنذار، وأنه إنذار واضح بين لمن أراد أن يعتبر بصاعقة عاد وثمود، وقوم هود وغيرهم مما ذكرهم الله تعالى في قرآنه العظيم، من رجفة في الأرض جعلت عاليها سافلها، أو ريح صرصر عاتية.

وهذا النص السامي جاء على نمطه قوله ﷺ : (أنا النذير العريان)."(٣)

"كالنذير الذي جاء ينذر قومه بالهلاك المقبل عليهم، فأعجله ذلك عن أن يلبس ملابسه، فجاءهم عريانا."(٤)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٧/ ١٤٢)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٩/ ١٦٢)

(٣) زهرة التفاسير (٨/ ٤١١٣)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٢٦٣) والحديث في الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري (٨/ ١٠١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، وصحيح مسلم (٤/ ١٧٨٨)

وجاءت صفة النذير منكرة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الحج : ٤٩]

"المعنى: قُلْ يا محمد إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ عذاب ليس إلي أن أعجل عذابا ولا أن أؤخره عن وقته."(١)

"أَمَرَ رَسُولَهُ بِأَنْ يُدِيمَ لَهُمُ التَّخْوِيفَ وَالْإِنْذَارَ، وَأَنْ لَا يَصُدَّهُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَنَ الاسْتِعْجَالِ لِلْعَذَابِ عَلَى سَبِيلِ الْهُزْءِ عَنْ إِدَامَةِ التَّخْوِيفِ وَالْإِنْذَارِ، وَأَنْ يَقُولَ لَهُمْ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِلْإِنْذَارِ فَاسْتِهْزَاؤُكُمْ بذلك لا يمنعني منه."(٢)

"فهو إنذار عام للناس جميعا، ولكنه في حقيقته إنذار خاص لكل ضالّ غويّ، ثم هو إنذار في مواجهة هؤلاء المشركين، يصرخ في وجوههم، ويصكّ أسماعهم.

وإنه لإنذار مبين واضح، بما معه من الأدلة القاطعة، والآيات الناطقة المعجزة."(٣)

"ظاهر السياق يقتضي أن المراد بالناس المشركون فإن الحديث مسوق لهم."(٤)

"وَافْتِتَاحُ الْمَقُولِ بِنِدَاءِ النَّاسِ لِلَفْتِ أَلْبَابِهِمْ إِلَى الْكَلَامِ. وَالْمُخَاطَبُونَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ.

وَالْغَرَضُ مِنْ خِطَابِهِمْ إِعْلَامُهُمْ بِأَنَّ تَكْذِيبَهُمْ وَاسْتِهْزَاءَهُمْ لَا يَغِيظُ النَّبِي ﷺ وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ، فَفِي ذَلِكَ قمع لَهُم إِذْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ يُمِلُّونَهُ فَيَتْرُكُ دَعْوَتَهُمْ، وَفِيهِ تَثْبِيتٌ للنبي وتسلية لَهُ فِيمَا يَلْقَاهُ مِنْهُمْ.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٢٨)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣٤)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٨)

(٤) تفسير الألوسي = روح المعاني (٩/ ١٦٣)

وَقَصْرُ النَّبِي عَلَى صِفَةِ النِّذَارَةِ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، أَيْ: لَسْتُ طَالِبًا نِكَايَتَكُمْ وَلَا تزلفا إِلَيْكُم، فَمَنْ آمَنَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا. وَ(النَّذِيرُ): الْمُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ. وَفِي تَقْدِيمِ الْمَجْرُورِ الْمُؤْذِنِ بِالِاهْتِمَامِ بِنِذَارَتِهِمْ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُمْ مُشْرِفُونَ عَلَى شَرٍّ عَظِيمٍ فَهُمْ أَحْرِيَاءُ بِالنِّذَارَةِ. وَ(الْمُبِينُ): الْمُفْصِحُ الْمُوَضِّحُ، أَيْ: مُبِينٌ لِلْإِنْذَارِ بِمَا لَا إِبْهَامَ فِيهِ وَلَا مُصَانَعَةَ."(١)

والآيات في هذا كثيرة منها قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [العنكبوت : ٥٠]، وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الملك : ٢٦]، وقوله تعالى: (إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [ص:٧٠]، وقوله تعالى: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الأحقاف: ٩]، وقوله تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الذاريات : ٥٠]، وقوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [الذاريات:٥١].

وجاءت صفة الإنذار بصيغة [منذر] كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [ص : ٦٥]

"يَعْنِي أُبَلِّغُ أَحْوَالَ عِقَابِ مَنْ أَنْكَرَ التَّوْحِيدَ وَالنُّبُوَّةَ وَالْمَعَادَ، وَأَحْوَالَ ثَوَابِ مَنْ أقر بها."(٢)

"هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد، والجزاء أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن."(٣)

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٣-٢٩٤)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٠٦)

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٥٨-٥٩) محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

"واقتصر على الإنذار مع أنه مبشر- أيضا- لأنه المناسب لـردهم عـن شركهم، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر، وأخرى بأنه كاهن."[١]

ومن قبيل الآية السابقة قوله تعالى: (وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) [النمل : ٩٢]

وجاء كلامه ﷺ عن صفة الإنذار لديه بصيغة المضارع [أنذر] كمـا فـي قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الـدُّعَاء إِذَا مَـا يُنـذَرُونَ) [الأنبياء : ٤٥]، وقوله تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم) [الأنعام : ١٩]

وتعدد طرق بيان هذه الصفة فيه يؤكد على شدة ظهورها لديه، كما يؤكد على مدى أهميتها عنده.

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/ ١٧٩)

خامسا: كلامه عن كونه عادلا

العدل قوام الحياة وأس بنائها، وقد أمر الله بإقامة العدل وحثَّ عليه، ومدح من قام به، ولا شك أن أعظم من تجلت فيه هذه الصفة وتحلت به هو إمام المرسلين، قال تعالى: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) [الشورى : ١٥]

"عن قتادة، قوله: (وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ) قال أُمِر نبي الله ﷺ أن يعدل، فعدل حتى مات – صلوات الله وسلامه عليه-. والعدل ميزان الله في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الشديد، وبالعدل يصدّق الله الصادق، ويكذّب الكاذب، وبالعدل يردّ المعتدي ويوبخه.

واختلف أهل العربية في معنى [اللام] التي في قوله: (وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ) فقال بعض نحويي البصرة[١]: معناها: كي، وأمرت كي أعدل؛ وقال غيره: معنى الكلام: وأمرت بالعدل، والأمر واقع على ما بعده، وليست [اللام] التي في (لأعدل) بشرط؛ قال: (وَأُمِرْتُ) تقع على [أن] وعلى [كي] و [اللام]، أمرت أن أعبد، وكي أعبد، ولأعبد. قال: وكذلك كلّ من طالب الاستقبال، ففيه هذه الأوجه الثلاثة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن الأمر عامل في معنى لأعدل، لأن معناه: وأمرت بالعدل بينكم."[٢]

"وقوله –عَزَّ وَجَلَّ–: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) ويحتمل وجوهًا:

أحدها: أي: أمرت لأعدل بينكم يحتمل: في الحكم؛ أي: أحكم فيما بينكم بالعدل؛ كقوله – تعالى –: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا).

---

(١) لعله يقصد الأخفش حيث قال: "وقال: (وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) أي: أُمِرْتُ كَيْ أَعدل." معاني القرآن للأخفش (٢/ ٥١٠) أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ) تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥١٧)

ويحتمل قوله: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) في الدعاء إلى توحيد اللَّه ودينه، والعدل في الدعاء، دعاؤهم إلى دينه الذي أمر أن يدعوهم إليه.

وجائز أن يكون قوله: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) أي: أمرت أن أكون عدلا فيما بينكم؛ أي: يسوي بينهم."(١)

وقد سبق الاستشهاد ببعض هذه الآية الكريمة: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) [الشورى : ١٥] عند القراءة التحليلية في كلامه عن إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله –تعالى–، وهي شاهد هنا، لذا تعد هذه الآية الكريمة مثالا على تعدد الموضوعات التي تتكلم فيها النبي ﷺ عن نفسه في آية واحدة، واشتملت –أيضا– على عدة موضوعات أخرى، لذا قال بعض المفسرين: "اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّاتٍ، كُلٌّ مِنْهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، لَهَا حُكْمٌ بِرَأْسِهِ، قَالُوا: وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشَرَةُ فُصُولٍ كَهَذِهِ."(٢)

من كل ما سبق نتبين كيف كان كلام النبي ﷺ عن سماته وصفاته الشخصية في إطار كلامه عن نفسه من القرآن الكريم، فرأينا كلامه عن كونه أول المسلمين وأول العابدين، وكلامه عن كونه رسولا، وكلامه عن كونه بشرا، إثباتا لحقيقة قد تطمس معالمها شدة أنوار نبوته وقوة أضواء رسالته، وكلامه عن كونه نذيرا وبشيرا، وكلامه عن كونه عادلا.

ولا يخفى أن كل هذه السمات لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة برسالته، مما يؤكد أن كلامه عن نفسه من القرآن الكريم لم يكن مقصودا لذاته، وإنما جاء بيانا لصدق نبوته وحقية رسالته.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٩/ ١١٥)

(٢) تفسير القرآن العظيم = تفسير ابن كثير (٧/ ١٩٥) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري (٧٧٤هـ) تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

الفصل الرابع

قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ

عن الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه

عرضنا في الفصل السابق بعضا من الصفات والسمات الشخصية للنبي ﷺ التي وردت في كلامه عن نفسه من القرآن الكريم، ونعرض في هذا الفصل بعضا من الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه، تلك الصفات التي قد يظن بعض الناس ثبوتها له، وفي هذا "إقرار على لسان الرسول نفسه، يواجه به الذين يرون في الرسول قوى لا يراها الرسول نفسه.

ومن شأن الإنسان أن يستكثر من الفضائل التي تضاف إليه، فإذا لم يتحدث بها هو عن نفسه دعا الناس إلى أن يتحدثوا بها عنه، فإذا تحرّج من هذا، لم يتحرج مما يراه الناس فيه ابتداء، من غير أن يحملهم عليه.

وهنا نجد الرسول الكريم يعرض نفسه على قومه، نازعا عنه كل تلك الأثواب الفضفاضة، التي يُلبسونها إياه، من نسج خيالاتهم وأوهامهم، مجرّدا من كل قوة إلا قوة إيمانه بالله، واستقامته على الحق الذي يدعو إليه.

وهذا الإقرار من النبي، والاعتراف على نفسه هذا الاعتراف الواضح الصريح، هو دليل من أدلة النبوة، وآية من آيات صدق النبي، وأنه مأمور بأن ينقل إلى النّاس ما يوحى إليه من ربّه، ولو كان أمرا متعلقا به في خاصة نفسه."(١)

"ولو كان النبي ممن يعمل لحسابه وممن يطلب المجد والسلطان لنفسه في الناس- لحمد لهؤلاء الظانين به هذه الظنون رأيهم فيه، ونظرتهم إليه، بل لعمل

(١) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٨٨-١٨٩)

على الترويج لهذه الظنون، وإذاعتها في الناس، ليكبر في أعينهم، ويعظم مقامه فيهم؛ ولكنّ النبي لا يعمل إلا للحق، ولا يتعامل مع الناس إلا بالحق."[١]

وقد تعددت الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه، وفي ما يأتي عرض لأبرزها.

أولا: نفي كون العلم ذاتيا فيه

في نفي هذه الصفة عن نفسه إثبات لاكتسابه العلم من طريق الوحي، قال تعالى: (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ) [ص : ٦٩]

"(مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ) في شأن آدم من قبل أن يوحي إلي ربّي فيعلمني ذلك، يقول: ففي إخباري لكم عن ذلك دليل واضح على أن هذا القرآن وحي من الله وتنزيل من عنده، لأنكم تعلمون أن علم ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن، ولا هو مما شاهدته فعاينته، ولكني علمت ذلك بإخبار الله إياي به."[٢]

"وَقَوْلُهُ: (مَا كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ) احْتِجَاجٌ عَلَى قُرَيْشٍ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ. فَإِنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مَا لَهُ عِلْمٌ بِمَنْ فِي السَّمَاءِ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمُ الْمُغَيَّبَاتِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِلْمُهُ بِأَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ، وَابْتِدَاءِ خَلْقِ آدَمَ لَمْ يَكُنْ عَنْهُ عِلْمٌ بِذَلِكَ فَإِخْبَارُهُ بِذَلِكَ هُوَ بِإِعْلَامِ اللَّهِ وَالِاسْتِدْلَالُ بِقِصَّةِ آدَمَ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ الْبَشَرِ خَلْقًا، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَزْمَانٌ مُتَقَادِمَةٌ وَقُرُونٌ سَالِفَةٌ."[٣]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٣٤)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٢٣٦)

(٣) البحر المحيط في التفسير (٩/ ١٧٢) ذكر أبو حيان أنه نقل هذا الكلام عن صاحب التحرير، يعني كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير) للشيخ جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن الحَنَفي المقدسي (٦٩٨هـ) المعروف بابن النقيب. والكتاب -في ما أعلم- لم تطبع منه إلا مقدمته.

"وَذِكْرُ فِعْلِ [كانَ] دَالٌّ عَلَى أَنَّ الْمَنْفِيَّ عِلْمُهُ بِذَلِكَ فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ بِذَلِكَ."(١)

"والتعبير بـ [يختصمون] المضارع لأنه أمر غريب فأتى به لاستحضاره حكاية للحال."(٢)

"وقوله تعالى: (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) متعلِّق بمحذوفٍ يقتضيه المقام، إذِ المراد نفيُ علمِه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بحالهم لا بذواتهم، والتَّقديرُ: ما كان لي فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحالِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامِهم، وتقديرُ الكلامِ كما اختاره الجمهورُ تحجيرٌ للواسعِ، فإنَّ علمه -عليه الصَّلاةُ والسلام- غير مقصور على ما جرى بينهم من الأقوالِ فقط بل عامٌّ لها وللأفعال أيضاً من سجودِ الملائكة واستكبارِ إبليسَ وكفره حسبما ينطلق به الوحيُ فلا بُدَّ من اعتبارِ العمومِ في نفيه أيضاً لا محالةَ."(٣)

وكما جاء الكلام عن نفي العلم في الماضي جاء كذلك عن نفي العلم في المستقبل، قال تعالى: (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) [الأحقاف : ٩]

"تقرير لبشرية الرسول، وأنه ليس إلا عبدا من عباد الله."(٤)

"وَما أَدْرِي لأنه لا علم لي بالغيب- ما يفعل الله بى وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله، ويقدر لي ولكم من قضاياه ... ويجوز أن يكون نفيا للدراية المفصلة." (٥)

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٧)

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (١٢/ ٢١٢)

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/٢٣٤-٢٣٥)

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٢٦٩)

(٥) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٩٨)

"والأظهرُ الأوفقُ أنَّ [مَا] عبارةٌ عمَّا ليسَ علمُه منْ وظائفِ النبوةِ من الحوادثِ والواقعاتِ الدنيويةِ، دونَ ما سيقعُ في الآخرةِ، فإنَّ العلمَ بذلكَ من وظائفِ النبوةِ، وقد وردَ به الوحيُ الناطق بتفاصيلِ ما يُفعلُ بالجانبينِ."(١)

"و[ما] في (ما يُفْعَلُ) يجوز أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهامية مرفوعة."(٢)

"والاستفهاميةُ أقضى لحقِّ مقامِ التبرؤِ عن الدراية، وتكريرُ [لا] لتذكيرِ النفي المنسحبِ إليه وتأكيده."(٣)

"وأعتقد أنه ﷺ لم ينتقل من الدنيا حتى أوتي من العلم بالله -تعالى- وصفاته وشؤونه والعلم بأشياء يعد العلم بها كمالا ما لم يؤته أحد غيره من العالمين، ولا أعتقد فوات كمال بعدم العلم بحوادث دنيوية جزئية كعدم العلم بما يصنع زيد مثلا في بيته وما يجري عليه في يومه أو غده."(٤)

---

(١) – تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٧٩)
(٢) – تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٩٨)
(٣) – تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٧٩)
(٤) – تفسير الألوسي = روح المعاني (١٣/ ١٦٨)

ثانيا: نفي معرفة الغيب المطلق

قد يظن بعض الناس أن مقام الرسول يجعله يعلم مطلق الغيب ، لذا ينفي هذه الصفة عن نفسه حتى لا يعتقد فيه الناس غير ما هو عليه، قال تعالى: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) [الأنعام:٥٠]

"يحتمل أن يكونوا سألوه أن يخبرهم عن أمور تستقبلهم قبل أن تستقبلهم، إن كان شرا فيعدوا له في دفعه، وإن كان منافع فيستقبلوا لها ويتهيئوا، فيقول لهم: ذا غيب وأنا لا أعلم الغيب إنما العلم في ذلك إلى اللَّه."(١)

"يَدُلُّ عَلَى اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ غَيْرُ عَالِمٍ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ."(٢)

"ما لم يوح إلي ولم ينصب عليه دليل."(٣)

"وَلَمَّا كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ أَمْرًا يُمْكِنُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى لِسَانِ الْبَشَرِ، بَلْ قَدْ يَدَّعِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَالْكُهَّانِ وَضُرَّابِ الرَّمْلِ وَالْمُنَجِّمِينَ، وَكَانَ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ بِأَشْيَاءَ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ وَطَابَقَتْ مَا أَخْبَرَ بِهِ نَفَى عِلْمَ الْغَيْبِ مِنْ أَصْلِهِ فَقَالَ: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تَنْصِيصًا عَلَى مَحْضِ الْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ. وَأَنَّ مَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ إِخْبَارٍ بِغَيْبٍ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْوَحْيِ الْوَارِدِ عَلَيْهِ لَا مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ."(٤)

"إن الحق – سبحانه– هو الذي علَّم رسوله ﷺ تلك الأخبار التي كانت من أنباء الغيب، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول: (عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً . إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) [الجن: ٢٦ – ٢٧] ."(٥)

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ١٢٤)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢/ ٤٣٦)

(٣) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٦٣)

(٤) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٥١٩)

(٥) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٤٠)

ومن الآيات التي اشتملت على نفيه لمعرفة مطلق الغيب قوله تعالى: (وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) [الأعراف : ١٨٨]

"هَذَا ارْتِقَاءٌ فِي التَّبَرُّؤِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ وَمِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْعَالَمِ، وَزِيَادَةٌ مِنَ التَّعْلِيمِ لِلْأُمَّةِ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَتَمْيِيزُ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهَا عَمَّا لَيْسَ مِنْهَا."(١)

"إِخْبَار عَنْ حَالِ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نَحْوَ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ، لِيَقْلَعَ مِنْ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ تَوَهُّمَ مُلَازَمَةِ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ لِصِفَةِ النُّبُوَّةِ، إِعْلَانًا لِلْمُشْرِكِينَ بِالْتِزَامِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِطَاعِنٍ فِي نُبُوَّتِهِ حَتَّى يَسْتَيْئِسُوا مِنْ تَحَدِّيهِ بِذَلِكَ، وَإِعْلَامًا لِلْمُسْلِمِينَ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا تَقْتَضِيهِ النُّبُوَّةُ وَمَا لَا تَقْتَضِيهِ، وَلِذَلِكَ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِهِ الْمُغَيَّبَةِ، فَضْلًا عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُغَيَّبَاتِ مِنْ أَحْوَالِ غَيْرِهِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ."(٢)

"(وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب) أي: جنسَ الغيبِ الذي من جملته ما بين الأشياء من المناسبات المصححةِ عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للممانعة والمدافعةِ.

(لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير) أي: لحصّلتُ كثيراً من الخير الذي نيط تحصيلُه بالأفعال الاختياريةِ للبشر، بترتيب أسبابِه ودفعِ موانِعه. (وَمَا مَسَّنِيَ السوء) أي السوءُ الذي يمكن التقصّي عنه بالتوقيِّ عن موجباته والمدافعةِ بموانعه، لا سوءٌ ما، فإن منه ما لا مدفعَ له."(٣)

"وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى انْتِفَاءِ عِلْمِهِ بِالْغَيْبِ بِانْتِفَاءِ الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْخَيْرِ، وَتَجَنُّبِ السُّوءِ، اسْتِدْلَالٌ بِأَخَصِّ مَا لَوْ عَلِمَ الْمَرْءُ الْغَيْبَ لَعَلِمَهُ أَوَّلَ مَا يَعْلَمُ وَهُوَ الْغَيْبُ

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٦)
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٧)
(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٣٠٢)

الَّذِي يُهِمُّ نَفْسَهُ، وَلِأَنَّ اللَّهَ لَوْ أَرَادَ إِطْلَاعَهُ عَلَى الْغَيْبِ لَكَانَ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ إِكْرام الرَّسُول ﷺ، فَيَكُونُ إِطْلَاعُهُ عَلَى مَا فِيهِ رَاحَتُهُ أَوَّلَ مَا يَنْبَغِي إِطْلَاعُهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ كَانَ انْتِفَاءُ غَيره أولى.

ودليل التَّالِي فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ هُوَ الْمُشَاهَدَةُ مِنْ فَوَاتِ خَيْرَاتٍ دُنْيَوِيَّةٍ لَمْ يَتَهَيَّأْ لِتَحْصِيلِهَا، وَحُصُولِ أَسْوَاءٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ لَهُمْ إِذْ كَانُوا يتعرضون لَهُ بالسوء." (١)

"أخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولاستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء، وقد خصص الناس هذا."(٢)

"وَالظَّاهِرُ عُمُومُ الْخَيرِ وَعَدَمُ تَعْيِينِ السُّوءِ."(٣)

"وحمل الخير والسوء على ما ذكر هو الذي ذهب إليه جلة المحققين."(٤)

"وقوله: (وَما مَسَّنِيَ) يحتمل وجهين، وبكليهما قيل:

أحدهما: أن [ما] معطوفة على قوله: (لَاسْتَكْثَرْتُ) أي: ولما مسني السوء.

والثاني أن يكون الكلام مقطوعا تم في قوله: (لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه وهو الجنون الذي رموه به."(٥)

"وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ تَفْكِيكٌ لِنَظْمِ الْكَلَامِ وَاقْتِصَارٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ جَوَابُ [لَوْ] لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ فَقَطْ، وَتَقْدِيرُ حُصُولِ عِلْمِ الْغَيْبِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الأمران لَا أَحَدُهُمَا، فَيَكُونَ إِذْ ذَاكَ جَوَابًا قَاصِرًا."(٦)

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٨)
(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٨٥)
(٣) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٤١)
(٤) تفسير الألوسي = روح المعاني (٥/ ١٢٦)
(٥) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٨٥)
(٦) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٤٢)

ثالثا: نفي أن تكون عنده خزائن اللّه

نفى النبي ﷺ أن تكون عنده خزائن الله، قال تعالى: (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ) [الأنعام : ٥٠]

"كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّه، فَاطْلُبْ مِنَ اللَّه حَتَّى يُوَسِّعَ عَلَيْنَا مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَا، وَيَفْتَحْ عَلَيْنَا أَبْوَابَ سَعَادَتِهَا.

فَقَالَ تَعَالَى: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّه، فَهُوَ - تَعَالَى- يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ لَا بِيَدِي.

وَالْخَزَائِنُ: جَمْعُ خِزَانَةٍ، وَهُوَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُخَزَّنُ فِيهِ الشَّيْءُ وَخَزْنُ الشَّيْءِ إِحْرَازُهُ، بِحَيْثُ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي."(١)

"وَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِنَفْيِ الْقَوْلِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَمْ يَقْتَرِنْ بِدَعْوَى الرِّسَالَةِ، فَلَا وَجْهَ لِاقْتِرَاحِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْمَنْفِيِّ قَوْلُهَا عَلَى الرَّسُولِ، لِأَنَّ الْمُعْجِزَةَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَجِيءَ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ."(٢)

"لا أدَّعي أن خزائنَ مقدوراتِه -تعالى- مُفوَّضةٌ إلي، أتصرف فيها كيفما شاء استقلالاً أو استدعاءً حتى تقترحوا عليّ تنزيلَ الآياتِ، أو إنزالَ العذاب، أو قلبَ الجبال ذهباً، أو غير ذلك، مما لا يليق بشأني."(٣)

"هَذَا يَدُلُّ عَلَى اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى كُلِّ الْمَقْدُورَاتِ." (٤)

"وخَزائِنُ اللَّهِ مُسْتَعارَةٌ لِتَعَلُّقِ قُدْرَةِ اللَّهِ بِالْإِنْعامِ وَإِعْطاءِ الْخَيْراتِ النّافِعَةِ لِلنّاسِ فِي الدُّنْيا. شُبِّهَتْ تِلْكَ التَّعَلُّقاتُ الصُّلُوحِيَّةُ وَالتَّنْجِيزِيَّةُ فِي حَجْبِها عَنْ عُيُونِ

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٢/ ٥٣٧-٥٣٨)

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٠)

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ١٣٦)

(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢/ ٤٣٦)

النَّاسِ وَتَنَاوُلِهِمْ مَعَ نَفْعِهَا إِيَّاهُمْ، بِخَزَائِنِ أَهْلِ الْيَسَارِ وَالثَّرْوَةِ الَّتِي تجمع الْأَمْوَال والأجبية وَالْخِلَعَ وَالطَّعَامَ."(١)

وقد يكون "ذِكْرُ الْخَزَائِنِ هُنَا اسْتِعَارة مَكْنِيَّة، شُبِّهَتِ النِّعَمُ وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ بِالْأَمْوَالِ النَّفِيسَةِ الَّتِي تُدَّخَرُ فِي الْخَزَائِنِ، ورَمَزَ إِلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ مَا هُوَ مِنْ رَوَادِفِ الْمُشَبَّهِ بِهِ وَهُوَ الْخَزَائِنُ. وَإِضَافَةُ [خَزائِنُ] إِلَى اللَّهِ لِاخْتِصَاصِ اللَّهِ بِهَا."(٢)

"وقيل: إن الخزائن مجاز عن المرزوقات من إطلاق المحل على الحالّ أو اللازم على الملزوم وقيل: الكلام على حذف مضاف أي خزائن رزق الله – تعالى– أو مقدوراته، والمعنى لا أدعي أن هاتيك الخزائن مفوضة"(٣)

"وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ وَهُوَ قَوْلُهُ (عِنْدِي) لِلِاهْتِمَامِ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُخْبَرِينَ بِهِ لَوْ كَانَ يَقُولُهُ."(٤)

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤١)
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٥٧)
(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ١٤٦)
(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤١)

رابعا: نفي كونه ملكا من الملائكة

نفى النبي ﷺ عن نفسه كونه ملكا من الملائكة، قال تعالى: (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) [الأنعام : ٥٠]

"فيه وجهان: أحدهما: أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد ، وإن قدرت عليه الملائكة. والثاني: أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بملَك ، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصارى في المسيح وقولهم: إنه ابن الله."(١)

"لا أدعي المَلَكية حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر من الرقي في السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحا في أمري كما ينبئ عنه قولهم: (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان : ٧]

وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لأنها إنما وردت ردا على الكفار في قولهم: (مالِ هذَا الرَّسُولِ إلخ) وتكليفهم له عليهم -الصلاة والسلام- بنحو الرقي في السماء.

ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- في عدم الأكل مثلا، والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه، ولا مساواتهم لهم في ذلك، بل كون الملائكة متميزين عليهم -عليهم الصلاة والسلام- في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه، وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان."(٢)

---

(١) النكت والعيون = تفسير الماوردي (٢/ ١١٦) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ) تحقيق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٤/ ١٤٧)

"قَوْلُهُ: (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) لَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ الصُّورَةِ، لِأَنَّهُ لَا يُفِيدُ الْغَرَضَ، وَإِنَّمَا نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ، وَهَذَا يَكْفِي فِي صِدْقِهِ، أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ، وَلَا تَكُونُ صِفَاتُهُ مُسَاوِيَةً لِصِفَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى وُقُوعِ التَّفَاوُتِ فِي كُلِّ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ عَدَمَ الِاسْتِوَاءِ فِي الْكُلِّ غَيْرٌ، وَحُصُولُ الِاخْتِلَافِ فِي الْكُلِّ غَيْرٌ."(١)

"فَنَفْيُ كَوْنِهِ مَلَكًا جَوَابٌ عَنْ مُقْتَرَحِهِمْ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعَه ملك نذيرا. وَالْمَقْصُودُ نَفْيُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَكُونَ مُقَارِنًا لِمَلَكٍ آخَرَ مُقَارَنَةَ تَلَازُمٍ كَشَأْنِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ الْوَاحِدِ."(٢)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢/ ٤٣٦)

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤٢)

خامسا: نفي ملكية النفع والضر لنفسه

نفي النبي صلى الله عليه وسلم- ملكية النفع والضر لنفسه، قال تعالى: (قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ) [الأعراف : ١٨٨].

"لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي، ولا دفع ضر يحلّ بها عنها إلا ما شاء الله أن أملكه من ذلك، بأن يقوّيني عليه ويعينني."(١)

"أى: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك والعبيد إِلَّا ما شاءَ ربى ومالكى من النفع لي والدفع عنى."(٢)

"وَفِي هَذَا مِنْ إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِقْرَارِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِ الْعَبِيدِ، وَالِاعْتِرَافِ بِالضَّعْفِ عَنِ انْتِحَالِ مَا لَيْسَ لَهُ ﷺ مَا فِيهِ أَعْظَمُ زَاجِرٍ، وَأَبْلَغُ وَاعِظٍ لِمَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا."(٣)

"وَقَدَّمَ النَّفْعَ فِي الذِّكْرِ هُنَا عَلَى الضُّرِّ: لِأَنَّ النَّفْعَ أَحَبُّ إِلَى الْإِنْسَانِ."(٤)

"وفى عطف الضر على النفع إشارة إلى أن النبي لا يملك لنفسه أي شيء، ولو كان من السّلبيات.. بمعنى أنه لو صح منه العزم على أن يضرّ نفسه ما استطاع أن يصل إلى شيء من ذلك، إلا ما شاء الله له.

وهذا أبلغ في وصف الإنسان-ولو كان نبيّا- بالعجز، وقصور يده عن أن يبلغ أي شيء إلا ما قدر الله له، ولو كان ذلك الشيء مما يحسب الإنسان أنه ملك خاص له، لا ينازعه فيه أحد، مما لا تنزع إليه النفوس ولا ترغب فيه، كطلب ما يضرّ من الأمور، وهو شيء مقدور عليه بأيسر جهد، بل بلا جهد أصلا."(٥)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٣/ ٣٠٢)

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١٨٥)

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣١٢)

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٢٠٧)

(٥) التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٣٥)

"(إِلاَّ مَا شَاء الله) استثناءٌ منقطعٌ، أي: ولكن ما شاء الله كائناً، وحملُه على الاتصال على معنى: إلا ما شاء الله أن املِكَه. يأباه مقامُ التبُّرؤ من أن يكون له -عليه السلام- دخلٌ في إتيان الوعدِ فإن ذلك يستدعي بيانَ كونِ المتنازَعِ فيه مما لا يشاء الله أن يملِكه -عليه السلام- وجعلُ ما عبارةً عن بعض الأحوالِ المعهودةِ المنوطةِ بالأفعال الاختياريةِ المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسي شيئاً من الضر والنفعِ إلا ما شاء الله أن أملِكه منهما من الضر والنفعِ المترتبَيْن على أفعالي الاختيارية كالضر والنفعِ المترتبَيْن على الأكل والشربِ عدماً ووجوداً تعسّفٌ ظاهرٌ."(١)

"قال ذلك؛ لئلا يتخذوه معبودًا، لا ينسبوه إلى اللَّه بالذي لا يليق النسبة به أنحو، ما قالت النصارى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات اللَّه؛ لعظيم ما وقع عندهم من محل هَؤُلَاءِ وقدرهم، فقال: (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)؛ لئلا ينسبوه إلى اللَّه من الوجه الذي نسب أُولَئِكَ، أظهر من نفسه العجز."(٢)

وقريب منها قوله تعالى: (قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ) [يونس : ٤٩]

"يقول: لا أقدر على أن أدفع عن نفسي سوءا حين ينزل بي، ولا أملك أن أسوق إليها خيرا ألبتَّة، فإذا لم أملك هذا كيف أملك إنزال العذاب عليكم إنما ذلك إلى اللَّه هو المالك عليه والقادر على ذلك، لا يملك أحد ذلك سواه."(٣)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٥١-١٥٢)
(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٥/ ١٠٩)
(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ٥٠)

"لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي مِنَ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ إِلَّا قَدْرَ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يُقَدِّرَنِي عَلَيْهِ وَيُمَكِّنَنِي مِنْهُ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِذَا أَقْدَرَهُ اللَّه عَلَيْهِ."(١)

"وتقديمُ الضر لِما أن مساقَ النظمِ لإظهار العجزِ عنه،(٢) وأما ذكرُ النفعِ فلتوسيع الدائرةِ تكملةً للعجز، وما وقع في سورة الأعرافِ من تقديم النفعِ للإشعار بأهميته، والمقامُ مقامُه، والمعنى: إني لا أملك شيئا من شئوني رداً وإيراداً مع أن ذلك أقربُ حصولاً، فكيف أملك شئونكم حتى أتسبّبَ في إتيان عذابِكم الموعودِ؟."(٣)

"وَقَدَّمَ الضُّرَّ لِأَنَّ السِّيَاقَ لِإِظْهَارِ الْعَجْزِ عَنْ حُضُورِ الْوَعْدِ الَّذِي اسْتَعْجَلُوهُ وَاسْتَبْعَدُوهُ."(٤)

"وَقُدِّمَ الضَّرُّ عَلَى النَّفْعِ لِأَنَّهُ أَنْسَبُ بِالْغَرَضِ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا اسْتِبْطَاءَ مَا فِيهِ مَضَرَّتُهُمْ وَهُوَ الْوَعِيدُ وَلِأَنَّ اسْتِطَاعَةَ الضَّرِّ أَهْوَنُ مِن اسْتِطَاعَةِ النَّفْعِ فَيَكُونُ ذِكْرُ النَّفْعِ بَعْدَهُ ارْتِقَاءً."(٥)

"وَقَوْلُهُ: (إِلَّا مَا شاءَ اللَّهُ) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ، أَيْ: لَكِنْ نَفْعِي وَضَرِّي هُوَ مَا يَشَاءُهُ اللَّهُ لِي."(٦)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٢٦)

(٢) الآية التي تسبق هذه الآية: (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) [يونس : ٤٨]

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ١٥١)

(٤) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥١١)

(٥) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٩)

(٦) التحرير والتنوير (١١/ ١٩٠)

سادسا: نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي

تعددت وتنوعت طرق بيان نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي، منها قوله تعالى: (قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) [الأنعام : ٩٠]

"(لا أسألكم) على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عوضًا أعتاضه منكم عليه، وأجرًا آخذه منكم، وما ذلك مني إلا تذكير لكم ولكل من كان مثلكم ممن هو مقيم على باطل بَأسَ الله أن يَحُلّ بكم، وسَخَطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتنزجروا."(١)

"أَمَرَهُ بِأَنْ يُخَاطِبَهُمْ بِأَنَّهُ غَيْرُ طَامِعٍ مِنْ دَعْوَتِهِمْ فِي أَنْ يَعْتَزَّ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ حَتَّى يَحْسَبُوا أَنَّهُمْ إِنْ أَعْرَضُوا عَنْهُ فَقَدْ بَلَغُوا مِنَ النِّكَايَةِ بِهِ أَمَلَهُمْ، بَلْ مَا عَلَيْهِ إِلَّا التَّبْلِيغُ بِالتَّبْشِيرِ وَالنِّذَارَةِ لِفَائِدَتِهِمْ لَا يُرِيدُ مِنْهُمُ الْجَزَاءَ عَلَى عَمَلِهِ ذَلِكَ. وَالْأَجْرُ: الْعِوَضُ عَلَى الْعَمَلِ وَلَوْ بِعَمَلٍ آخَرَ يُقْصَدُ بِهِ الْجَزَاءُ."(٢)

ومثلها قوله تعالى: (قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) [الشورى : ٢٣] إلا أنه استثنى هنا استثناء منقطعا فقال: (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى).

"لا أسألكم أيها القوم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم ثوابا وجزاء وعوضا من أموالكم تعطونيه (إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)."(٣)

"واختلف أهل التأويل في معنى قوله: (إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) .

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١١/ ٥٢٠)

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٧-٥٨)

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٢٤)

فقال بعضهم: معناه: إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا رحمي بيني وبينكم."[١]

"وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لمن تبعك من المؤمنين: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا إلا أن تودّوا قرابتي."[٢]

"وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لا أسألكم أيها الناس على ما جئتكم به أجرا إلا أن تودّدوا إلى الله، وتتقربوا بالعمل الصالح والطاعة."[٣]

"وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أن تصلوا قرابتكم."[٤]

"وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش، إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وإنما قلت: هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول[في] في قوله: (إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ، ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال: إلا أن تودوا قرابتي، أو تتقربوا إلى الله، لم يكن لدخول[في] في الكلام في هذا الموضع وجه معروف، ولكان التنزيل (إلا مودّة القُربى) إن عنِي به الأمر بمودّة قرابة رسول الله ﷺ، أو (إلا المودّة بالقُرْبَى)، أو (ذا القربى) إن عنِي به التودّد والتقرب. وفي دخول[في] في الكلام أوضح الدليل على أن معناه: إلا مودّتي في قرابتي منكم، وأن الألف واللام في المودّة أدخلتا بدلا من الإضافة، كما قيل: (فَإِنَّ الْجَنَّةَ

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٢٤-٥٢٥)
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٢٧)
(٣) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٢٩)
(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٢٩)

هِيَ الْمَأْوَى) [1] [النازعات : ٤١] وقوله: (إلا) في هذا الموضع استثناء منقطع. ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجرا، لكني أسألكم المودّة في القُربى."[2]

ولا يصح قول من قال إن الاستثناء متصل، لأن جعله متصلا يثبت طلب الأجر، والله قد نفاه في قوله تعالى: (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) [يوسف: ١٠٤]

وكما استثنى هنا استثنى -أيضا- في قوله تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) [الفرقان : ٥٧]

"واستثنائه عن الأجر كقول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه.

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين، إحداهما: قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله، كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابا فإني أطلب الثواب، والثانية: إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك: اعتدّ بحفظك ثوابا وأرضى به كما يرضى المثاب بالثواب. ولعمري إنّ رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه.

ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا: تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل: المراد التقرّب بالصدقة والنفقة في سبيل الله."[3]

"صوَّرَ ذلك بصورةِ الأجرِ من حيثُ إنَّه مقصود الإتيان به، واستثنى منه قلعاً كلِّياً لشائبةِ الطَّمعِ، وإظهاراً لغاية الشَّفقةِ عليهم، حيثُ جعلَ ذلك مع كونِ نفعِه عائدا إليهم عائدا إليه ﷺ."[4]

---

(١) بمعنى: هي مَأْواه، كما صرح الطبري في عدة مواضع أخرى من تفسيره.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٢١/ ٥٣٠)

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٨٨)

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٢٢٦)

"وقيل: المعنى ما أسألكم عليه أجرا إلا أجر من آمن، أي: إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه، فإن الدال على الخير كفاعله، وحينئذ لا يحتاج إلى الادعاء والتصوير السابق، والأولى ما فيه قلع شائبة الطمع بالكلية."(١)

"وَذِكْرُ وَصْفِ الرَّبِّ دُونَ الِاسْمِ الْعَلَمِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ السَّيْرَ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَحْقُوقٌ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ وَإِلَّا كَانَ آبقا."(٢)

ومن طرق بيان نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي قوله تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) [ص : ٨٦]

"وما أنا ممن تكلف ذلك من تلقاء نفسي، ولا أمرتكم بما آمركم إلا بالوحي."(٣)

"(عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) الضمير للقرآن أو للوحي، (وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعا ولا مدّعيا ما ليس عندي، حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن."(٤)

وقيل: "الْمُرَادَ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ دِينٌ لَيْسَ يَحْتَاجُ فِي مَعْرِفَةِ صِحَّتِهِ إِلَى التَّكَلُّفَاتِ الْكَثِيرَةِ، بَلْ هُوَ دِينٌ يَشْهَدُ صَرِيحُ الْعَقْلِ بِصِحَّتِهِ."(٥)

والأَوْلَى –في رأيي– أنه: "أَفَادَ انْتِفَاءَ جَمِيعِ التَّكَلُّفِ عَنِ النبي ﷺ.

وَالتَّكَلُّفُ: مُعَالَجَةُ الْكُلْفَةِ، وَهِيَ مَا يَشُقُّ عَلَى الْمَرْءِ عَمَلُهُ وَالْتِزَامُهُ لِكَوْنِهِ يُحْرِجُهُ أَوْ يَشُقُّ عَلَيْهِ، وَمَادَّةُ التَّفَعُّلِ تَدُلُّ عَلَى مُعَالَجَةِ مَا لَيْسَ بِسَهْلٍ، فَالْمُتَكَلِّفُ هُوَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ مَا لَيْسَ لَهُ أَوْ يَدَّعِي عِلْمَ مَا لَا يَعْلَمُهُ.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (١٠/ ٣٧)

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٨)

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٨/ ٦٥٠)

(٤) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ١٠٩)

(٥) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤١٦)

فَالْمَعْنَى هُنَا: مَا أَنَا بِمُدَّعٍ النُّبُوةَ بَاطِلًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ، وَهُوَ رَدٌّ لقَولهم: (كَذَّابٌ) وبِذَلِكَ كَانَ كَالنَّتِيجَةِ لقَوْله: (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) لِأَنَّ الْمُتَكَلِّفَ شَيْئًا إِنَّمَا يَطْلُبُ مِنْ تَكَلُّفِهِ نَفْعًا، فَالْمَعْنَى: وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ."(١)

"وَالْمَعْنَى: عُمُومُ نَفْيِ سُؤَالِهِ الْأَجْرَ مِنْهُمْ مِنْ يَوْمِ بُعِثَ إِلَى وَقْتِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ قِيَاسُ اسْتِقْرَاءٍ، لِأَنَّهُمْ إِذَا اسْتَقْرَوْا أَحْوَالَ الرَّسُولِ ﷺ فِيمَا مَضَى وَجَدُوا انْتِفَاءَ سُؤَالِهِ أَجْرًا أَمْرًا عَامًّا بِالِاسْتِقْرَاءِ التَّامِّ الْحَاصِلِ مِنْ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَمِيعِ مُخَالَطَاتِهِمْ إِيَّاهُ، فَهُوَ أَمْرٌ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَهُمْ فَهَذَا إِبْطَالٌ لقَولهم: (كَذَّابٌ) الْمَحْكِيُّ عَنْهُمْ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ،(٢) وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ."(٣)

"وَأُخِذَ مِنْ قَوْلِهِ:(وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ لَا تَكَلُّفَ فِيهِ، أَيْ لَا مَشَقَّةَ فِي تَكَالِيفِهِ، وَهُوَ مَعْنَى سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ."(٤)

ومن طرق البيان التي أفادت نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي قوله تعالى: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [سبأ : ٤٧]

"(فَهُوَ لَكُمْ) جزاء الشرط الذي هو قوله:(ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) تقديره: أيّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم، كقوله تعالى: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ) [فاطر : ٢]."(٥)

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٨-٣٠٩)

(٢) الإشارة هنا إلى قوله تعالى:(وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) [ص :٤]

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٨)

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٩)

(٥) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٥٩٠-٥٩١)

"نفى مسألة الأجر رأسا، كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئا فخذه، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد به البت، لتعليقه الأخذ بما لم يكن."(١)

"والمراد نفي السؤال رأسا، وإمحاض النصح كناية، لأن ما يسأله السائل يكون له، فجعله للمسئول عنه كناية عن أنه لا يسأل أصلا."(٢)

"وهذه مادة من مواد التفكير، في سبيل البحث عن الحقيقة التي يدعو إليها الرسول عقْلَ ذوى العقل، فهذه المادة مما تعين على الكشف عن الحقيقة والتهدّي إليها، وتلك المادة هي أن الرسول- صلوات الله وسلامه عليه- لم يطلب أجرا من أحد على ما يدعو إليه، وأنه لم يطلب بذلك جاها أو سلطانا: (ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) حتى أكون بموضع تهمة، بأنني إنما أدعو إلى ما أدعو إليه ابتغاء كسب مادي لذات نفسي.. إنها دعوة بريئة من كل غرض شخصي، خالصة من كل مئونة تحملونها من أجلها، فماذا يحجزكم عنها، أو يحملكم على التصدي لها، والوقوف في وجهها؟. "(٣)

"هَذَا اسْتِقْصَاءٌ لِبَقَايَا شُبَهِ التَّكْذِيبِ لِدَحْضِهَا سَوَاءً مِنْهَا مَا تَعَلَّقُوا بِهِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِمْ: كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ، وَمَا لَمْ يَدَّعُوهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّهُ يُرِيد بِهَذِهِ الدعْوَةِ نَفْعًا لِنَفْسِهِ يَكُونُ أَجْرًا لَهُ عَلَى التَّعْلِيمِ وَالْإِرْشَادِ.

وَهُمْ لَمَّا ادَّعَوْا أَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ أَنَّهُ شَاعِرٌ أَوْ أَنَّهُ كَاهِنٌ لَزِمَ مِنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِجَائِزَةِ الشَّاعِرِ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ فَلَمَّا نُفِيَتْ عَنْهُ تِلْكَ الْخِلَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِي الْكِنَانَةِ سَهْمُ طَعْنٍ، إِلَّا أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّهُ يَطْلُبُ أَجْرًا عَلَى الْإِرْشَادِ فَقِيلَ لَهُمْ: مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ ظَنٌّ انْتِفَاعِي مِنْكُمْ بِمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ لِي مِنْ أَجْرٍ عَلَيْهِ فَخُذُوهُ.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/٥٩١)

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٨/ ١٥٥)

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٨٤١-٨٤٢)

وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ بَدِيعَةٌ فِي الْكِنَايَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ عَنْ عَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْ يُفْرَضَ كَالْوَاقِعِ، ثُمَّ يُرَتَّبَ عَلَيْهِ الانْكِفَافُ عَنْهُ وَرَدُّ مَا فَاتَ مِنْهُ، لِيُفْضِيَ بِذَلِكَ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَمِنَ التَّعَرُّضِ لَهُ، فَهِيَ كِنَايَةٌ رَمْزِيَّةٌ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُمْ أَجْرًا (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) [ص: ٨٦-٨٧] أَوْ إِنْ كُنْتُ سَأَلْتُكُمْ أَجْرًا فَلَا تُعْطُونِيهِ، وَإِنْ كُنْتُمْ أَعْطَيْتُمْ شَيْئًا فَاسْتَرِدُّوهُ، فَكُنِّيَ بِهَذَا الشَّرْطِ الْمُحَقَّقِ انْتِفَاؤُهُ عِنْدَ انْتِفَاءِ أَنْ يَكُونَ طَالِبًا أَجْرًا مِنْهُمْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) [الْمَائِدَة: ١١٦] .

وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ عَقِبَهُ مِنْ قَوْلِهِ: (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) فَجِيءَ بِالشَّرْطِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِيَدُلَّ عَلَى انْتِفَاءِ ذَلِكَ فِي الْمَاضِي، فَيَكُونُ انْتِفَاؤُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَجْدَرَ، عَلَى أَنَّ وُقُوعَهُ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ يَقْضِي بِانْتِفَائِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا. وَهَذَا جَارٍ مَجْرَى التَّحَدِّي لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِجَمَاعَتِهِمْ أَوْ آحَادِهِمْ عِلْمٌ بِأَنَّهُ طَلَبَ أَجْرًا مِنْهُمْ لَجَأَرُوا حِينَ هَذَا التَّحَدِّي بِمُكَافَحَتِهِ وَطَالَبُوهُ بِرَدِّهِ عَلَيْهِمْ.

وَيَنْتَقِلُ مِنْ هَذَا إِلَى تعين أَنَّ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ التَّبَرُّؤُ مِنْ أَنْ يَكُونَ النبي ﷺ يُرِيدُ مِنْهُمْ أَجْرًا أَوْ يَتَطَلَّبُ نَفْعًا، لِأَنَّ انْتِفَاءَ ذَلِكَ مَا يُلَاقِيهِ مِنَ الْعَنَاءِ فِي الدَّعْوَةِ دَلِيلُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ مِنَ اللَّهِ لَا يُرِيدُ جَزَاءً مِنْهُمْ.

وَ[مَا] يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً، و(مِنْ أَجْرٍ) بَيَانًا لِإِبْهَامِ [مَا] وَجُمْلَةُ (فَهُوَ لَكُمْ) جَوَابَ الشَّرْطِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ [مَا] نَافِيَةً. وَتَكُونَ [مِنْ] لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّكِرَةِ فِي النَّفْيِ، وَتَكُونَ [الْفَاءُ] فِي قَوْلِهِ: (فَهُوَ لَكُمْ) تَفْرِيعًا عَلَى نَفْيِ الْأَجْرِ، وَضَمِيرُ [هُوَ] عَائِدًا عَلَى الْقُرْآنِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْمَقَامِ وَمِنْ تَقَدُّمِ قَوْلِهِ: (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ) [سبأ: ٤٣] أَيْ: فَهَذَا الْقُرْآنُ لِفَائِدَتِكُمْ لَا لِفَائِدَتِي، لِأَنَّ قَوْلَهُ: (مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) يُفِيدُ أَنْ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ. وَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ نَظِيرَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) [ص: ٨٦-٨٧]."[1]

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٣٥-٢٣٦)

سابعا : نفي كونه وكيلا على قومه أو حفيظا عليهم

جاء نفي كونه وكيلا على قومه في قوله تعالى: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) [الأنعام : ٦٦]

"لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم."(١)

"قال عامة أهل التأويل: الوكيل: الحفيظ، والوكيل: هو القائم في الأمر، أي: لست بقائم عليكم؛ لأكرهكم على التوحيد والإيمان شئتم أو أبيتم، ولست بحافظ على أعمالكم إنما عليَّ التبليغ."(٢)

"وقيل: (بِوَكِيلٍ) بِمُسَلَّطٍ وَقِيلَ(٣): لَا أَقْدِرُ عَلَى مَنْعِكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ إِجْبَارًا إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ."(٤)

"وقوله تعالى: (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) هو تهديد لهؤلاء المشركين بأن يُتْركوا لِيَد الضياع والهلاك، بعد أن أدّى النبي رسالة الله إليهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم تلك الجناية التي أمسكت بهم على مواقع الشرك والضلال، والنبي ليس وكيلا عنهم، بل هم راشدون يتولّون أمر أنفسهم، ويحاسبون على ما يقع منهم."(٥)

"وَقَوْلُهُ: (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) إِرْغَامٌ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ أَنَّهُمْ لَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِ قَدْ أَغَاظُوهُ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُغِيظُهُ ذَلِكَ وَأَنَّ عَلَيْهِ الدعْوَةَ فَإِذا كَانُوا يَغِيظُونَ فَلَا يَغِيظُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١١/ ٤٣٤)

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ١١٧-١١٨)

(٣) هذا قول الزمخشري في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٣٤)

(٤) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٥٤٤-٥٤٥)

(٥) التفسير القرآني للقرآن (٤/ ٢٠٨)

وَالْوَكِيلُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُدَافِعِ النَّاصِرِ، وَهُوَ الْحَفِيظُ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عِمْرَانَ : ١٧٣].

وَتَعْدِيَتُهُ بِـ [عَلَى] لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْغَلَبَةِ وَالسُّلْطَةِ، أَيْ: لَسْتُ بِقَيِّمٍ عَلَيْكُمْ يَمْنَعُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ."(١)

ومن قبيل ذلك قوله تعالى: (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) [الأنعام : ١٠٤]

"وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم."(٢)

"وَجُمْلَةُ: (وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) تَكْمِيلٌ لِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ: (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها)، أَيْ: فَلَا يَنَالُنِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَلَا يَرْجِعُ لِي نَفْعُكُمْ، وَلَا يَعُودُ عَلَيَّ ضُرُّكُمْ، وَلَا أَنَا وَكِيلٌ عَلَى نَفْعِكُمْ وَتَجَنُّبِ ضُرِّكُمْ، فَلَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ حَتَّى تَمْكُرُونَ بِي بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْهُدَى وَالِاسْتِمْرَارِ فِي الضَّلَالِ.

وَالْحَفِيظُ: الْحَارِسُ وَمَنْ يُجْعَلُ إِلَيْهِ نَظَرُ غَيْرِهِ وَحِفْظُهُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْوَكِيلِ إِلَّا أَنَّ الْوَكِيلَ يَكُونُ مَجْعُولًا لَهُ الْحِفْظُ مِنْ جَانِبِ الشَّيْءِ الْمَحْفُوظِ، وَالْحَفِيظُ أَعَمُّ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ جَانِبِهِ وَمِنْ جَانِبِ مُوَالِيهِ. وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) [الْأَنْعَام: ٦٦] .

وَالْإِتْيَانُ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ هُنَا دَقِيقٌ، لِأَنَّ الْحَفِيظَ وَصْفٌ لَا يُفِيدُ غَيْرَهُ مُفَادَهُ، فَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِعْلُ [حَفِظَ] ... وَتَقْدِيمُ [عَلَيْكُمْ] عَلَى [بِحَفِيظٍ] لِلِاهْتِمَامِ وَلِرِعَايَةِ الفَاصِلَةِ."(٣)

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٧)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (١٢/ ٢٥)

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٠-٤٢١)

"قدم الجار والمجرور؛ لأن نفوسهم ستهمهم؛ ولذلك قدم خطابهم على الوصف، وقد أكد – سبحانه– النفي بـ [الباء]، وأكده بالجملة الاسمية، والمعنى: وما أنا بحفيظ عليكم من أن تتدلوا في العذاب بإنكاركم بآيات ربكم، وكفركم بالله بعد أن بدت الدلائل القاطعة، والأدلة البينة الواضحة، كما قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) [الرعد : ٧]، ولقوله تعالى: (وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ) [النمل : ٨١ / الروم : ٥٣]، فلا مسئولية على الرسول في ضلالهم."(١)

وتشعبت – أيضا– مجالات كلامه عن صفاته وسماته وأحواله الشخصية:

تكلم عن كونه أول المسلمين وأول العابدين، وتبين أن أولية إسلامه مطلقة، وليست مخصوصة بهذه الأمة، وليس ثمة ما يمنع ذلك، إذ أن الأولية – في كل الآيات التي وردت فيها– أولية مطلقة غير مقيدة، على الرغم من تعدد تلك الآيات وتنوع أساليبها، فليس فيها ما يشير إلى تقييد الأولية بالأمة.

وتكلم عن كونه رسولا، قطعا للطريق على المكذبين، وإقامة للحجة على المنكرين.

ومنها كلامه عن كونه بشرا، إثباتا لحقيقة قد تطمس معالمها شدة أنوار نبوته وقوة أضواء رسالته.

وتكلم عن كونه نذيرا وبشيرا، وقد جاءت صفتا النذير والبشير معا في بعض الآيات، وتقدمت فيها صفة النذير على البشير، وجاءت صفة النذير منفردة في بعض الآيات، وجاءت بصيغة المنذر في بعضها ، ولم تأت صفة البشير منفردة.

(١) زهرة التفاسير (٥/ ٢٦١٩)

من كل ما تقدم يتضح لنا كيف كان نفي النبي ﷺ لبعض السمات والأحوال عن نفسه، فنفي كون العلم ذاتيا فيه، ونفي معرفة الغيب المطلق، و نفي أن تكون عنده خزائن الله، و نفي كونه ملكا من الملائكة، و نفي ملكية النفع والضر لنفسه، ونفي طلب الأجر على تبليغ الوحي، ونفي كونه وكيلا على قومه أو حفيظا عليهم، وفي نفي هذه الصفات وتلك الأحوال مواجهة للذين يرون في الرسول قوى لا يراها الرسول نفسه؛ مما يؤكد أن كلامه عن نفسه من القرآن الكريم لم يكن مقصودا لذاته، وإنما جاء تدليلا على صدق نبوته وحقية رسالته.

أرجو أن تكون قد كشفت القراءة التحليلية في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم عن ملامح وسمات شخصية النبي ﷺ كما رسمها هذا الكلام، كما أرجو أن تكون قد أبانت عن السمات العامة والخاصة التي تجلت في هذا الكلام، وإلا فعذري أنني حاولت.

خاتمة

الحمد لله في الأولى والآخرة ، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

كشفت القراءة التحليلية في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم عن نظام جامع لهذا الكلام على الرغم من تناثره في سور القرآن الكريم، ظهر هذا النظام في مجموعة من السمات العامة التي شاعت في هذا الكلام.

كان ضمير المفرد المتكلم العائد إلى النبي ﷺ – سواء أكان متصلا أم منفصلا، ظاهرا أم مستترا – هو السلك الذي انتظمت فيه درر هذا الكلام وجواهره.

وتبين أن كثيرا من كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم إنما جاء في إطار أمر الله له أن يقول هذا الكلام، وقد جاء بعض كلامه عن نفسه مباشرة فلم يسبق بفعل الأمر [قل].

وقد يأتي الأمر [قل] مرة واحدة في كثير من الآيات التي اشتملت على كلام النبي ﷺ عن نفسه، وقد يتكرر الأمر قل في بعضها.

جاء أمر النبي ﷺ بالكلام عن نفسه في إطار الرد على المخالفين، لذا اقترن كلامه عن نفسه بالكلام عن الآخرين.

وقد تتوالى الآيات التي ورد فيها كلام النبي ﷺ عن نفسه وقد تنفرد.

وشاع التأكيد في أساليب كلام النبي ﷺ عن نفسه.

وقد يرد الموضوع الواحد في آيات عديدة، وقد تشتمل الآية الواحدة على عدة موضوعات.

وتنوع المخاطبون بكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، فتارة يكون الخطاب عاما للناس جميعا، وتارة يكون للكافرين، وتارة يكون لأهل الكتاب، وتارة يكون للمؤمنين. وقد يميل الخطاب إلى العقل تارة وإلى القلب تارة أخرى.

وقد حفِلَ كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم بسمات جمال متعددة الأنواع، فمنها سمات الجمال في الألفاظ، ومنها سمات الجمال في الأساليب، ومنها سمات الجمال في التصوير.

وقد حظيت أساليب كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم بسمات الجمال، فلا يخلو أسلوب من مظاهر الجمال، كالإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتأكيد، والتكرار، وغيرها.

وقد تنوعت طرائق التصوير في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم، ما بين الحقيقة والمجاز بأنواعه المتعددة وألوانه المختلفة.

وتمثل الناس ببعض ما جاء من كلامه عن نفسه.

وقد أبانت القراءة التحليلية لهذا الكلام عن كل ذلك تفصيلا، كما كشفت القراءة التحليلية عن ملامح وسمات شخصية النبي ﷺ كما رسمها هذا الكلام، من خلال كلامه عن علاقته بالله، ومن خلال كلامه عن علاقته بالقرآن الكريم وعلاقته بدينه، ومن خلال كلامه عن صفاته وسماته الشخصية، ومن خلال بعض الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه.

وتشعبت مجالات كلامه عن علاقته بالله:

تكلم عن إقراره بتوحيد الله وتعددت صور هذا الإقرار، وكان من أبرزها تصريحه بكلمة التوحيد، وبيان عدم إشراكه بالله، وإنكاره أن يبغي غير الله ربا.

وتكلم عن إقراره بأن وليه الله، وتنوعت صور هذا الإقرار، فجاءت تارة من طريق التأكيد على هذا الإقرار، وتارة من طريق الاستفهام المجازي.

و تكلم عن توكله على الله، واتضح أن قوله: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) قد اتفقت في بيانه على هذا النحو جميع الآيات التي ورد فيها، وإن اختلفت سياقاته وتذييلاته، وهذا يبين مدى حرصه على تأكيد هذا المعنى، بيانا لتلك الحقيقة ودعوة للعمل بها.

وتكلم عن عبادته لله، وظهر اقتران بعض كلام النبي ﷺ عن عبادته بكلامه عن الدين في بعض الآيات، وبعضها تكلم فيها عن العبادة وحدها، وتبين إلى أي مدى بلغت عناية النبي ﷺ بعبادته لله، ومدى إخلاص العبادة له، ونبذه لكل معبود سواه، وتأكيده للمشركين بعده التام عن عبادة أي شيء سواه، في صراحة تامة ووضوح شديد دون مواربة أو تعريض.

وتكلم عن دعوته إلي الله، وجاءت كل الشواهد بالفعل المضارع [أدعو] إشارة إلى استمراره في الدعوة إلى الله وعدم انقطاعه عنها أبدا.

وتكلم عن استشهاده بالله على صدقه، واجتمعت الآيات في هذا على بيان الاكتفاء بشهادة الله عن شهادة ما سواه، وفي هذا إشعار بمدى صدقه مع نفسه وصدقه مع الآخرين.

و تكلم عن تحكيم الله في كل أموره، واستنكاره أن يرضي بغير الله حكما، واستعماله لصيغة [الحكم] وعدم استعمال صيغة [الحاكم] وفي هذا بيان لدقة اختيار الكلمة في كلامه عن نفسه.

و تكلم عن خوفه من معصية الله وعذابه، وذلك على الرغم من كونه ﷺ معصوما من فعل المعصية إلا أنه تكلم عن خوفه من معصية الله ليكون في ذلك بيان لغير المعصوم.

وتشعبت -أيضا- مجالات كلامه عن علاقته بالقرآن الكريم وعلاقته بدينه:

جاء كلامه عن علاقته بالقرآن الكريم في عدة محاور من أبرزها: أن هذا القرآن وحي الله الذي أوحاه إليه، و أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند نفسه، وأن متبع لهذا الوحي غير مبتدع فيه، وأنه سر هدايته إلى الطريق المستقيم الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة.

كما أبان عن إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله -تعالى- ليظهر مدى توافقه مع الرسالات السماوية السابقة وعدم تعارضه معها.

واشتمل كلامه عن علاقته بدينه على عدة محاور من أبرزها: الهداية الربانية له إلى هذا الدين، وأنه الصراط المستقيم، وأنه دين القِيَم، وأنه امتداد لملة إبراهيم -عليه السلام-، وإخلاص هذا الدين لله، وشدة تمسكه بهذا الدين، ودفاعه عن هذا الدين ضد محاولات التشكيك،

وتشعبت -أيضا- مجالات كلامه عن صفاته وسماته وأحواله الشخصية:

تكلم عن كونه أول المسلمين وأول العابدين، وتبين أن أولية إسلامه مطلقة، وليست مخصوصة بهذه الأمة، وليس ثمة ما يمنع ذلك، إذ أن الأولية في كل الآيات أولية مطلقة غير مقيدة، على الرغم من تعدد تلك الآيات وتنوع أساليبها، فليس فيها ما يشير إلى تقييد الأولية بالأمة.

وتكلم عن كونه رسولا، قطعا للطريق على المكذبين، وإقامة للحجة على المنكرين.

ومنها كلامه عن كونه بشرا، إثباتا لحقيقة قد تطمس معالمها شدة أنوار نبوته وقوة أضواء رسالته.

وتكلم عن كونه نذيرا وبشيرا، وقد جاءت صفتا النذير والبشير معا في بعض الآيات، وتقدمت فيها صفة النذير على البشير، وجاءت صفة النذير منفردة

في بعض الآيات، وجاءت بصيغة المنذر في بعضها ، ولم تأت صفة البشير منفردة.

وتكلم عن أمر الله له بالعدل، وظهر تنوع المراد بالعدل في سياق الآية، والراجح أن العدل فيها شامل لجميع الأحوال.

وتشعبت – كذلك – مجالات كلامه عن نفي بعض السمات والأحوال عن نفسه، فنفي كون العلم ذاتيا فيه، ونفي معرفة الغيب المطلق، و نفي أن تكون عنده خزائن الله، و نفي كونه ملكا من الملائكة، و نفي ملكية النفع والضر لنفسه، و نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي، و نفي كونه وكيلا على قومه أو حفيظا عليهم، وفي نفي هذه الصفات وتلك الأحوال مواجهة للذين يرون في الرسول قوى لا يراها الرسول نفسه.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث أن كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم لم يكن مقصودا لذاته، وإنما جاء تدليلا على صدق نبوته وحقية رسالته، تشير إلى هذا جميع فصول هذا البحث دون استثناء.

بهذا أرجو أن تكون القراءة التحليلية في كلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم قد كشفت عن ملامح وسمات شخصية النبي ﷺ كما رسمها هذا الكلام، كما أرجو أن تكون قد أبانت عن السمات العامة والخاصة التي تجلت في هذا الكلام، وإلا فعذري أنني حاولت.

أسأل الله حسن القبول وسلامة الوصول إلى غاية المأمول.

أبرز مراجع ومصادر البحث

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ) تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل = تفسير ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٦ هـ.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (١٤٢٩هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة، بدون تاريخ.
- التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري (١٢٢٥هـ) تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية – الباكستان، ١٤١٢ هـ.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (١٤٣١هـ) دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧/١٩٩٨م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية)– القاهرة ، ١٢٨٥هـ.
- الفوائد، أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي الدمشقي (٤١٤هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل = تفسير الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن = تفسير الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (٤٢٧هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز = تفسير ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- النكت والعيون = تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ) تحقيق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
- بحر العلوم = تفسير السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٥هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ على محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود والدكتور زكريا عبد المجيد النوبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- تأويلات أهل السنة = تفسير الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (٣٣٣هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد = التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤هـ.
- تفسير القرآن = تفسير السمعاني (٢/ ٣٦٢) أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني (٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
- تفسير القرآن الحكيم = تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم = تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري (٧٧٤هـ) تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.
- تفسير المراغي أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.
- تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (٢١١هـ) دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (١٠٤هـ) تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، بدون تاريخ.
- تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (١٥٠هـ) تحقيق: د. عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (١٣٧٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
- جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.
- خواطري حول القرآن الكريم = تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي (١٤١٨هـ) مطابع أخبار اليوم، ١٩٩١ م.

- ديوان طرفة بن العبد ، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان البكري الوائلي(٥٦٤م) تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- ديوان قيس بن الخطيم ، أبو يزيد قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (٢ق.هـ) تحقيق: الدكتور ناصر الدين الأسد، دار صادر – بيروت، ١٩٦٧م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني = تفسير الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ
- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان = تفسير النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (٨٥٠هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

- مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- محاسن التأويل = تفسير القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (١٣٣٢هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- مسند الشاميين ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (٥١٠ه) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه .
- معاني القرآن للأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ) تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ -١٩٩٠ م.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م.

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي (٩٦٣هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت. بدون تاريخ.
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير = تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٢٠هـ.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمـــة	٤١٦٧
تمهيد: حول السمات العامة لكلام النبي ﷺ عن نفسه من القرآن الكريم	٤١٧١
الفصل الأول قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالله	٤١٧٩
أولا: كلامه عن إقراره بتوحيد الله وعدم الإشراك به	٤١٧٩
ثانيا: كلامه عن إقراره بأن وليه الله	٤١٨٩
ثالثا: كلامه عن توكله على الله	٤١٩٢
رابعا: كلامه عن عبادته لله	٤١٩٤
خامسا: كلامه عن دعوته إلي الله	٤٢٠٤
سادسا: كلامه عن استشهاده بالله على صدقه	٤٢٠٧
سابعا: كلامه عن تحكيم الله في كل أموره	٤٢١٠
ثامنا: كلامه عن خوفه من معصية الله وعذابه	٤٢١٣
الفصل الثاني قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالقرآن الكريم وعن علاقته بالدين	٤٢١٦
أولا: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالقرآن الكريم	٤٢١٦
ثانيا: قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن علاقته بالدين	٤٢٢٨
الفصل الثالث قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن صفاته وسماته الشخصية	٤٢٣٩
أولا: كلامه عن كونه أول المسلمين وأول العابدين	٤٢٣٩

ثانيا : كلامه عن كونه رسولا	٤٢٤٧
ثالثا : كلامه عن كونه بشرا	٤٢٥٣
رابعا : كلامه عن كونه نذيرا و بشيرا	٤٢٥٨
خامسا : كلامه عن كونه عادلا	٤٢٦٤
الفصل الرابع **قراءة تحليلية في كلام النبي ﷺ عن الصفات والأحوال التي نفاها عن نفسه**	٤٢٦٦
أولا : نفي كون العلم ذاتيا فيه	٤٢٦٧
ثانيا : نفي معرفة الغيب المطلق	٤٢٧٠
ثالثا : نفي أن تكون عنده خزائن الله	٤٢٧٣
رابعا : نفي كونه ملكا من الملائكة	٤٢٧٥
خامسا : نفي ملكية النفع والضر لنفسه	٤٢٧٧
سادسا : نفي طلب الأجر على تبليغ الوحي	٤٢٨٠
سابعا : نفي كونه وكيلا على قومه أو حفيظا عليهم	٤٢٨٧
خاتمـــة	٤٢٩١
فهرس أبرز مراجع ومصادر البحث	٤٢٩٦
فهرس الموضوعات	٤٣٠٤